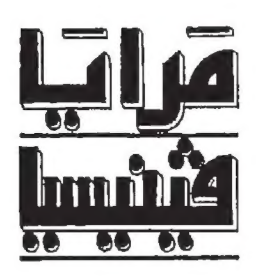
أحمد إبراهيم الفقيه



مجموعة قصص

دار الشروق

صفحة فارغة


مرايا
سينما

الطبعـة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص. ب ٣٣ البانوراما - تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

تقنيات القصة القصيرة لدى أحمد إبراهيم الفقيه

سلطة الخيال التعزيمية

دراسة نقدية بقلم الدكتور صبري حافظ

« إنه من أكثر كتاب القصة الليبية تطوراً ، ومن أقدرهم على تجاوز إنجازاته باستمرار ، والإسهام بهذا التجاوز الدائم فى إثـراء القصة العربية والإضافة إلى مغامـراتها الحديثة ، وخـاصة فى أعمالـه الأخيرة التى يقتحـم فيها آفـاقًا فنيـة ومضمونية جديدة ، ويضرب بها فى أرض بكـر تقع على تخوم الواقع والحلم ، وتنحت قسماتها مـن أديم الخيـال ، وتؤهلـه لأن يكون نسيجًـا وحده فى عـالم القصة العربية » .

يحتل أحمد إبراهيم الفقيه مكانة متميزة في لوحة القصة الليبية الحديثة . ليس فقط لأنه من أبرز كتاب هذا الجنس الأدبي في ليبيا ، وأخصبهم موهبة ، وأغزرهم إنتاجًا وأكثرهم حضورا في الواقع الأدبي العربي ، وليس أيضا لأنه من الكتاب الليبيين القلائل الذين درسوا القصة الليبية وحاولوا بلورة رحلتها المتميزة من النضج وتتبع مسارات المؤثرات التي شاركت في صياغة شخصيتها الخاصة . ولكن أيضا لأنه من أكثر كتاب القصة الليبية تطوراً . ومن أقدرهم على تجاوز إنجازاته باستمرار ، والإسهام بهذا التجاوز الدائم في إثراء القصة العربية والإضافة إلي مغامراتها الحديثة ، وخاصة في أعماله الأخيرة التي يقتحم فيها آفاقًا فنية ومضمونية جديدة ، ويضرب بها في أرض بكر تقع علي تخوم الواقع والحلم ، وتنحت قسماتها من أديم الخيال ، وتؤهله لأن يكون نسيجا وحده فى عالم القصة العربية المترامي الأطراف والمحتشد بالأصوات المتداخلة والمتشابهة التي لا يضيف معظمها الكثير إلى وجدان القصة العربية أو حتى إلى رقعة عالمها الفني .

لكن أهم الأسباب التي تطرح أحمد إبراهيم الفقيه بقوة كممثل للقصة الليبية على الساحة العربية هي هذا التناظر الشائق بين رحلة الفقيه الأدبية ومسيرة القصة الليبية مع النضج والتطور . فقد ولد أحمد إبراهيم الفقيه في الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٩٤٢ في مزده ، وهي مركز صحراوي يقع علي مشارف الصحراء الليبية ، أو الصحراء العربية الكبرى ، إلى الجنوب من طرابلس العاصمة . في هذا الواقع الرابض على حدود الصحراء . القريب في الوقت نفسه من أكبر المدن الليبية ، والذي يجمع إلى سمات ليبيا الصحراوية بعض ملامح عاصمتها الحضرية ولد قصاصنا . وكان عام ميلاده هو على

وجه التقريب عام اكتمال مرحلة الميلاد والتبلور بالنسبة للقصة الليبية التي بدأ مخاضها الطويـل قبل ميلاده بسبع سنوات في مجلة (ليبيـا المصورة) على أيدي وهبي البـوري عام ١٩٣٥ ، واستمـر هذا المخـاض القصصي عبر أعمال أحمد راسم قدري والذي كان يوقع كتاباتـه باسم « قاسم فكري » وهو الاسم الذي زاوج فيه بين اسمي قـاسم أمين وفكري أباظـة ليعلن من خلال المزاوجـة بنوته الفكرية لآراء قـاسم أمين التحريرية ، ولـدعوته الرائدة لتحريـر المرأة ، وتأثره بأسلـوب فكري أبـاظة الـرشيق ، وروحه المداعبـة الساحـرة في كتابـة الصور القلمية ورؤية العالم .

ولايقتصر التناظـر بين حياة أحمد إبراهيـم الفقيه ومسار القصـة الليبية على تعاصر مرحلـة الميلاد ، ولكنه يتجاوزهـا إلى طبيعة المكونات ، ورحلـة التطور معًا . فقد كان جد أحمد الفقيه الأكبر فقيها للقـرية . وهذا هو مصدر الاسم نفسـه « الفقيـه » ولذلـك كـان مـن الطبيعي أن يتلقـي أحمد تعليمـه الأول في « الزاوية » وهـي المعادل الليبي للكتاب المصري الشهير ، ليـس فقط لأن جده كان شيخا للـزاوية ، ولكن أيضا نشـأة أحمد في تلك البيئة لم تتح لـه غير ذلك من التعليم التقليدي . و ثقافته الأولى كانت هـى الثقافة التقليدية التي نهلت من منابعهـا بدايات القصة الليبية والعـربية على السواء من ولع بـالمقامات إلى شغف بالمفـارقات التي كانت تمثل جـل الحس الدرامي أو القصصي في الأدب التقليدي ، الشفهـي منه والمكتوب ، إلى أهتمام بجزالـة اللغة ولو تحقـق ذلك على حساب الإقناع القصصي ، إلى غير ذلك مـن خصائص البدايات الأولى الواقعة في براثن القص التقليـدي . كما أن أحمد قد ولد لا في أسرة بدوية حتى تكون اهتمامـاته الأسريـة بعيدة عن مشـاغل المدينة التـي ارتوت منهـا تيارات القص الحديثـة ، وإنما في أسرة ذات علاقـة وثيقة بـالمدينة وأن كـانت لاتـزال ضاربة جذورها في أرض البلدة الصحـراوية . فقد ورث الابن الأكبر « أى عم

أحمد» عن الجد مهنتـه ، أما الأبن الـذي قدر له أن ينجـب كاتبا فقـد أصبح صاحب دكان في مزده . وهذا يعني أنه دكـان من النوع الشامل الذي يبيع كل ما يحتـاج إليه أهل البلـدة ، من شـاى وسكر ، إلى أقمشة الملابـس والأكفان وحاجيـات الأصحاء والمرضى علي السـواء . . ومن هنا اتصلـت أسباب أحمد بالمدينة منـذ نعومة أظافره . ان لم يرهـا في البداية فقد كان يسمع أخبـارها منذ تفتح وعيه عبر عيني الأب الذي كان يذهب إليها لتجارته . والمدينة هي العالم الآخر المختلف الغـريب الساحر المليء بالحكـايات المحفوف بالمخـاطر . وهو عالم الاكتشافـات والعجائب والإمكانات الهائلة ، وهي جميعًـا من الخصائص الضرورية للتربيـة القصصية أو لـلإعداد للدخـول في عالم الكتابـة باهتمامـاته الحضرية

ومـا أن أكمل أحمد تعليمـه التقليدي ثـم انتقل إلي طـرابلس عـام ١٩٥٧ ليواصـل دراسته في تلك المدرسـة الجديدة التـي أسستها منظمة اليـونسكو في طرابلس والتي كـانت تسمي ـ ولمثل هذا الأسـم سحر علي الأب الذي مارس التجارة كـل حياته ـ « المركـز التجاري الفني » حتـى كانت القصة الليبيـة قد اكملت هي الأخـرى مرحلة الدوران في فلـك الحكايات التقليديـة عند زعيمة البـاروني وعلي مصطفـي المصراتي فى بـواكير أعمالـه القصصيـة ، وشرعـت في التعامل مـع شتى أبعاد التجربة الحضريـة بما تثيره من ردود فعل مألـوفة تتسم عادة بالطبيعة الرومانسية . وإذا كانـت دراسة الفقيه قد اتخذت في هذا الوقت طابعًا مدنيا حاصا . فقد كان هـذا هو حال القصة الليبية كذلك . إذ خرجت في تلـك الفترة كلية مـن إهاب السلفيـة وتخلصـت من العنـاصر التقليديـة ، وبدأت مغامرتها مع الاتجاه الرومانسي علي يدي عبد القادر أبو هروس ويوسف الدلنسي ، والرومانسيـة عادة من عواقب هذا الاصطـدام الحاد بيں أخلاقيات وقيم تنتمـي إلى مرحلتين مختلفتين . ولكنهما لأسبـاب تاريخيـة متعاصرتـان في واقع اجتماعـي ما ، وقد كـان هذا هو حـال أحمد الفقيه الذي جـاء إلى المدينة

ولكنه كان لايزال يعيش بقيمه ووجدانه في القرية الصحراوية التي خلفها وراءه وحملها في أعماقه في وقت واحد . وكان هذا الاصطدام الملتاع بين العالمين والأخلاقيتين هو التيار التحتي الذي يسري هو الآخر في كتابات الاتجاه الرومانسي المسيطر علي واقع القصة الليبية في هذه المرحلة .

ومع بدايات الستينيات كان أحمد الفقيه قد أكمل تعليمه في طرابلس ، وتوجه إلى مصر للدراسة في معهد سرس الليان لتنمية المجتمع لدراسة السمعيات والبصريات ببعثة من اليونسكو . . وقد رافقت هذه الرحلة بدايات الفقيه الأدبية من ناحية ، ودخول القصة الليبية في مرحلة جديدة من ناحية أخرى . كانت الستينيات أو بالأحري بدايات الستينيات هي مرحلة الصعود القومي الذي لعبت فيه مصر دوراً رئيسيًا . وكانت أيضا مرحلة وضوح الرؤي وتحدد قسمات الحلم القومي العريض ، والإيمان الراسخ المتين بالذات الوطنية والعربية ، وكان لابد أن تنفتح القصة الليبية في هذه المرحلة علي القصة المصرية وأن تتأثر بأهم كتابها في هذه الفترة وهو يوسف إدريس الذي وقع أحمد الفقيه ، كغيره من الكتاب العرب في هذا الوقت تحت تأثيره الكاسح لفترة غير قصيرة ، بل وكان من الطبيعي أيضا أن تبدأ القصة الليبية برمتها في استيعات مغامرة القصة بالمشرق عامة وفي مصر خاصة ، وأن يقع كثير من كتابها تحت تأثير التيار الواقعي الذي اجتاح القصة العربية حينئذ فغير لغتها ، وبدل منظورها للعالم وللشخصيات ، وأثر علي طريقة تناولها لمادتها ومعالجتها للأحداث والجزئيات . وطور أدواتها الفنية وأساليبها في صياغة مادتها ورسم شخصياتها، وقد بدأ كتاب القصة الليبية فى استيعاب هذا الاتجاه الواقعي الجديد الذى تجسد على الصعيد الليبي في كتابات كامل مقهور وخليفة التكالي وبشير الهاشمي وبدايات أحمد الفقيه القصصية التي كان يحاكي في الكثير منها أسلوب يوسف إدريس ويطمح إلى بلورة المعادل الليبي لعالمه المغرق في المصرية .

والواقع أن هناك أكثر من وجه شبه بين يوسف إدريس وأحمد الفقيه ، ليس فقط لأن كلا منهما طلع من أعماق شعبه ، واستشعر أدق خصائص هذا الشعب . وحاول أن يخلق لها المعادل القصصي الذي يحولها إلي فن أدبي جميل . . ولكن أيضا لأن كلا منهما عمل بالصحافة في بداية حياته ، فربطته الصحافة بالإيقاع اليومي للحياة ، وباعدته عن تقعر الأدباء المعزولين في أبراجهم العاجية . إذ عمل أحمد الفقيه في الصحافة الليبية عقب عودته من مصر ، وواصل في الوقت نفسه كتابة القصة وسط صعود مد التيار الواقعي في القصة الليبية . فصدرت مجموعته الأولى (البحر لا ماء فيه) عام ١٩٦٥ حاملة الكثير من سمات هذا الاتجاه . . ثم أعقبتها مجموعته الثانية (اربطوا أحزمة المقاعد) عام ١٩٦٨ . لكن المجموعة التي وضعت أحمد الفقيه بقوة واقتدار علي خريطة القصة العربية كانت مجموعة (اختفت النجوم فأين انت) التي صدرت عام ١٩٧٤ . وهي أكثر مجموعات هذه المرحلة الواقعية نضجًا . وأحفلها بالبعد النفسي للشخصيات . ولا غرو فقد صدرت هذه المجموعة في الوقت الذي أخذ فيه التيار النفسي في القصة الليبية في التبلور ، وخاصة في كتابات عبد الله القويري وخليفة حسين مصطفي وغيرهما من كتاب هذه الفترة أمثال الصادق النيهوم وإبراهيم الكوني ورضوان أبو شويشة بتلويناتهم المختلفة .

لكن هذه المجموعة أيضا كانت أكثر مجموعات الفقيه نضجا واكتمالا على الصعيد الفني المحض . ليس فقط لأنه استطاع أن يبلور فيها موقفا فكريا واضحا من العالم والشخصيات ، ولكن أيضا لأنه اهتم فيها بالبناء القصصي على صعيد اللغة القصصية وبنية النص القصصي الدرامية . وقد استفاد الفقيه في هذه المجال من دراسته للمسرح ولكل عناصر التجربة الدرامية السمعية والبصرية في مصر ، وفي أول معهد للمسرح في ليبيا بعد ذلك . وكان نضج هذه المجموع القصصية وقدرتها علي تقديم عالم فني متماسك ، وتجربة قصصية

قادرة علي مخاطبة جمهور أوسع مـن الجمهور المحلي دي الاهتمامات المحدودة ، ورؤيةإنسانية حيـة ومقنعة وراء تسمية كاتبنا بيوسـف إدريس القصة الليبية . ويبدو أن أحمد الفقيه هـو بحق يوسف إدريـس القصة الليبية ليس فقـط لأنه جسدعنفوان تجربتـه الواقعية ، أو لأنه سبر أغوار النفـس البشرية والشخصية الليبية بـاقتدار واقنـاع وتمكن ، أو لأنـه استطاع أن يضـع القصة الليبيـة علي خريطـة القصة العربيـة . ولكن أيضا لأنه كيـوسف إدريس يكتـب المسرحية والمقـالة إلي جـوار فنه القصصي الأثير . فقـد كتب أحمد الفقيـه مسرحيتين هما (هند ومنصور) ١٩٧٢ و (الغزالات) ١٩٨٤ . كما كتب العـديد من الكتب النقدية والخواطر أو الصور القلمية مثل : (معارك الغد) ١٩٧٥ ، و (تجيئين كالماء وتذهبين كـالريح) ١٩٧٩ . و (كلمات من ليـل سليمان) و(الصحراء وأشجـار النفط) ١٩٨٠ و (أبنـاء الماء وأبنـاء النـار) ١٩٨٢ ، و (بدايـات القصة الليبية) ١٩٨٤ ، و (شوق الأجنحـة إلي الرحيل) ١٩٨٥ و (البحث عن ليلي العامرية) ١٩٨٧ . كما كتب مثله الرواية كذلك لأنه نشر مؤخرا روايته الأولى (حقول الـرماد) ١٩٨٦ . لكن أهـم الأسبـاب التي تدفعني إلى دعـوته بيوسف إدريـس القصة الليبية هي أنـه لا يركن إلى دعة إنجـازاته القصصية ، مهما كـانت أهميتهـا ، وإنما يعمـل علي تجاوز كشوفـه بـاستمـرار ، والمغامرة بالقصـة في بقاع بكر وأرض جـديدة لم يسمع فيها وقـع لقدم ليبية مـن قبل ، وهذا هـو ما فعلـه في مجموعته الأخيرة (امـرأة من ضـوء) التي صـدرت هذا العام ، والتي وضعـت أحمد الفقيه بحق بين أبرز كتاب القصـة العربية لأنها لا تنطـوي علي إضـافـة كبرى للقصـة الليبية وحـدهـا ، وإنما تعـد واحـدة مـن الإضافات الهامة بالنسبة للقصة العربية في السنوات الأخيرة .

* * *

تحتل مجموعة أحمد إبراهيم الفقيه الأخيرة « امرأة من ضوء » مكانة متميزة في

لوحـة القصة الليبيـة الحديثة . ليس فقـط لأنها متميزة المذاق ، متفـردة اللغة والأسلوب ، ولكـن أيضا لأنها تـوشك أن تكون المجمـوعة الليبيـة الأولى التي تضيف شيئًا جديدا إلى إنجاز القصـة العربية القصيرة ككل . ذلك لأن الفقيه يتجاوز في هـذه المجموعـة الجديدة مـواضعات القـص الواقعـي التقليديـة ، واستقصـاءات القصـة النفسيـة المكـرورة ، ليبلور تجربتـه الفنيـة الفـريـدة ، وإسهامـه المتميز في القصة العـربية ، إذ ينفـص عن عالمه القصصي فيهـا كل المؤثرات التي أوهنت من تمايز مجموعاتـه السابقة ، ويبدع بها لغته ومفرداته ، التي تقترب مـن تخوم الشعر حتى تصل الأجـزاء الموزونة شعريًـا وذات الإيقاع المضبـوط عروضهـا في القصـة الأخيرة بالمجمـوعـة إلى ثمانين في المائه من المتـن القصصي . وحتى يصبح اللجوء إلى التدبير فيها وجهـا بنائيا من وحوه الدائرة المحكمة التـي تقتنص القارىء والشخصيـات على السواء في شبكتهـا المراوعة المغوية معًا . ويؤسس عبرهـا عالمه القصصي الذي يتخلق من عملية المزج بين الحقيقـة والخيـال ، وبين الـوقـائع وتميات الشخصيـة وهـواجسهـا ، حيـث تكتسب الـرغبات قدرة تنويميـة أو تعزيمية فـريدة ، تجعل الحلم هـو المحرك الأساسي للـواقع . والحيـاة هي التي تحاكـي الأمنيات . بـالصورة التـي تجسد معها ، هـذه المجموعة القصصيـة الجميلة ، قدرة الفـن علي خلق واقع بـديل تنهض من ثناياه الأحلام وقد تألقـت بحضور مدهش رائع وتنداح فيه الوقائع اليومية المألوفة والغريبة معاً فى غياب باهت لا تستحق في حقيقة الأمر سواه .

فلم يعد النص القصصي في هذه المجموعة الجديدة امتدادا للواقع أو محاكاة لتضاريســه ومنطقه ، بـل عمد النص إلى تـأكيد استقلالـه وتميز منطقـه عن المنطق الـواقعي ، الذي يحتفظ فقـط بتضاريسه الخارجية ، بينما يخضـع تلك التضاريس لمنطق مغاير كلية للمنطق الذي اعتدنا سيطرته على حركتها وتحكمه في إيقاع تغيرهـا . ويعلن الكاتـب عن منهجـه هذا في المقتطف الـذي يجعله مفتتحا لمجموعتـه أو منطلقا لقراءتها عندما يقول : « إننـي أرفض الهروب من

الواقع بمثل ما أرفض أن أتورط في محاولة كاذبة لترحيله كما هو ، وأنا أعرف أني لا أستطيع . ولذلك فإنه لابد من وسيلة اخرى غير هاتين الوسيلتين الاثنتين . ومن هنا بدأت محاولتي للبحث عن الأشياء الخفية وراء الأشياء التي نراها ، أن يكون الفن عينا ثالثة ، نرى بها الوجـود الآخر للأشياء ، ذلك الوجود الذي لا نراه بأعيننـا . إنه محاولة للكشف عـن أسرار هذا الواقع ودلالاتـه . إن الشيء الذي أراه لا يعنينـي في حد ذاتـه ، ولكن مـا يعنيني هـو الدلالـة خلف هـذا الشيء ، كما أن الحدث لا يعنيني في حـد ذاته ، ما يعنيني هو الـدلالة خلف هذا الحدث » .

(من حـديث مـع أحمد إبراهيـم الفقيه أجـرته معـه مجلة « كـل العرب » في ٢٠ يونيو ١٩٨٤) .

لكن تقـديم الكـاتب لهذا المنهـج يكشف عـن بعض أسراره الـواضحة ، ويترك أهم ملامحه وإنجازاته دون كشف أو تـوصيف ، ربما لأن الكاتب نفسه هو آخر مـن يقدم لنا وصفًا دقيقا لكـل ما ينطوي عليه عـالمه الفني من أسرار وربما لأن العمـل الأدبي يتضمـــن في نهايـة المطـــاف الكثير مـن الخصـــائص والإنجـازات التي لم يتقصـدها الكـاتب ، والتـي تنبثق بشكـل عفوي نتيجـة لآليات العمليـة الإبداعية البـالغة الكثافـة والتعقيد . إذ تكشف لنـا قصص المجموعة عن أن الإنجاز الحقيقي لاستراتيجيـاتها النصية الجديدة ، ليس بأي حال مـن الأحوال الكشـف عن أسرار الـواقع و « لـدلالاته » المختفيـة خلف تبديـاته المتعددة ، فهـذا ما تحققه كـل الأعمال الفنية على مختلف تـوجهاتها ، ولكن اكتشاف البنية العميقـة لحركية تعامل الإنسان مع واقعـه . ولقدرة الفن على تسيير الـواقع مـن خـلال آليات عمليـات التقـديـم والتأخير ، والابـراز والتشحيب . كما أن الكـاتب لم يتخل عـن الاستفادة مـن تكنيك الاعتماد على الخط المباشر بين العين والموضـوع في الوصف ، وهـو التكنيك الذي يبـدو أنه يخلق إيهاما بالواقع ، ولكنه يستخدم هـذا الأسلوب الذي يرتبط لعقود عديدة

بـالكتابـة الواقعيـة ، ليحقق بـه مقلـوب هدفهـا ، وهو الإحـاطة بكـل إيهام بالواقع ، وايهام علاقة النص به ، وتكـريس سيطرة الوهم على ما تواضعنا على تسميته بـالحقيقة ، والمزج المستمر بين الـوقائع والأحلام والأوهـام . وهو المزج الذي يبـدو لأول وهلة وكـأنه شـيء مألـوف ، ولا جدة فيـه على مستوى مـن المستويات ، ولكن طريقة تناول الفقيه الفريدة هي التي تكسبه جدته ، حيث تتجسد أفكار الشخصيات وأحلامها ورغائبها ، وقد اكتسبت قدرة تنويمية أو تعزيمية فريدة ، تجعل الحلم يحرك الواقع ويفرض عليه منطق حركته الجديد .

ويلجأ الكاتب إلى مجموعة من الأساليب والمنطلقات الفنية لتحقيق ذلك ، ففي أولى قصـص المجموعـة ، وهي قصـة العنوان ، يجعـل مدخلـه إلي عالمه القصصي لحظـه متألقـة مقتطعة مـن ذكريـات الطفولـة المضمخة بـوهج مـن صقوس العرس البدوي ، ونشوة الاكتشاف الحسي الأول . ثم ينطلق من هذا المدخـل ، ليقـدم قصة البحـث الأبـدي عـن المرأة ، وعن لحظـة الاكتشـاف السحري الأولي لذلك الإحساس الخاص ، الـذي يمتزج فيه الحب والنشوة ، بولوج العوالم الجديـدة ، باكتشاف المناطق البكر والمحرمـة ، أو بالأحري قصة البحث الأبـدي عن المستحيـل ، عن الزمـن الضائع المفقـود الذي تحتفـظ به الـذاكرة حيـا متوهجـا يفوق في حيـويتـه وفاعليتـه كثيراً من العـوالم والوقـائع الحقيقية . وفي رحلة البحث المضنية تتراكم الخيبات الصغيرة كمحطات متتابعه فى مسيرة العمـر وتكتسب تلـك الخيبـات الصغيرة دلالات تفوق كثيراً حـدود معانيها المبـاشرة . وكلما عرفت محطات العمـر خيبة ، هرعت آليـات التذكر إلى فراديس الطفولة تستمد من لحظاتها المنصرمة قوة جديدة لمواصلة رحلة البحث الأبدي من جـديد . ومن خلال المراوحة الـدائمة بين الواقع وزمن الـذكريات المنصرم تتخلق مجموعة متراكمة من الدلالات لبطلة القصة «عائشة» التي تتردد عبرها بعض أصداء عائشة الخيام الشهيرة ، وقـد امتزجت بأمشاج من الصراع الـدائر فى أغـوار الشرقـي دوما بين المرأة الشرقيـة ذات السحـر والمرأة الغـربيـة

المتحررة المغوية . وما أن يعثر الترقـي الممزق بين الحضارتين على أحدهما حتى يظل يبحث في أغوارها عن المرأة الاخرى . وكأنه يتشوق عبثًا إلي جمع النقيضين في جسد واحـد: إلى المزاوجة بين نقـاء الطفولة، وتـوهج الحس الـذي تشتعل شراراته كلما التقى الـرجل بأنثاه المبتغاة. لكـن استحالة التجربة وينـاعتها معا هي التي تترك القصة في النهاية مشحونة بذلك الألق المترع بالتوتر .

أما القصـة التاليـة « المرأة والكلب » فإنها تقتنـص القارىء في شبكـة تلك اللعبة الحاذقـة : لعبة الـوهم والحقيقـة وقد أوقعـت ببطليها قبلـه في شباكهـا المغوية . ولا غرو فالقصة تبدأ بتلك الجملة الحازمة ، « قررت في تلك اللحظة أن كل هـؤلاء الناس الذيـن يمتلىء بهم هذا الميدان الكبير . . » وكـأنها تفرض منذ اللحظة الأولى قرارات الفن على الواقع . وسطوة الوهم على الحقيقة . ومن هنا فـإنها لا تصف لنـا الميدان كما هـو في الحياة ، ولكنهـا تتكيء على مظهـره الوصفي لتقـدم لنا ميدانها الصاخـب بالحيوات المتوهمة ، والقصـص المخترعة التي يلفت نظر القارىء منذ البداية الصـارمة إلى اختراعها ، ويوقعه مع ذلك في شبكتها التي لا تقل سحراً ونفوذا عن أي شبكة تنسجها الوقائع وتصاريف المقادير . وتختار من بين شخصيات هذا الميدان العامر بالناس ذوي القصص المختلفة ، تلك المرأة الجميلـة التي تخترع القصة أو يخترع الراوي لها كلبـا رقيقا تتنزه بـه . ويديـر مع الكلـب وصاحبته قصة تردد بطـريقتها الخاصـة بعض أصـداء رائعـة تشيكـوف الشهيرة « السيدة صـاحبـة الكلـب » لأن العنـاصر التناصية مـن الأبعاد الهامة في هذه القصـص ، ليس فقط لأنها توسـع من أفق الدلالـة فيها ، ولكن أيضـا لأنها ترهـف من حدة الجدل بين أصـوات القص المتراكبة في النص . وتلفت أنظارنا إلى وجود درجـة مراوغة من درجات التوحد بين صـوت الـراوي وصـوت القصـة ، أو الصـوت المانـح للقـص مشروعيتـه ومصداقيتـه . والذي يجعل للسرد تلـك القوة التعزيميـة لأن ما يفرضـه ذلك السرد علي الوقائع والأشيـاء هو ما يعيشه الراوي على الفور . وكـأن الكاتب ـ

وهو غير الراوي وغير صوت القص - يريـد لنا أن نمتحن مصداقية تلك القوة السردية السحـرية من خـلال تجسيداتها كوقائع جـديدة في حياة الـراوي التي تتدفق أمامنـا على الورق . ويصل هذا الامتحان ذروته عنـدما يقرر الراوي أن يطلق الرصاص على الكلب ويرديه مجندلا في دمائه . عند هذه اللحظة نحس أن للكلب الوهمي الذي يضحي به علي مذابح هذا الاخفاق المر في لعبة السعي الأبدي إلي التـواصل مع المرأة ، وجـوداً لا يقل حقيقـة وصلابة عـن وجود أي كلب حقيقي . فنلتاع للإجهاز عليه ، وقد اكتسب إلى جانب دلالاته المحددة قوة رمزية كانت السبب في مصـادرة عدد مجلة (الكفاح العربي) الذي نشرت به القصة ، ذلك لأن راوي القصة ، وقارئهـا معا ، يكتشمان في عملية التلقي الشائقـة ، التي تلتحم فيها فـاعلية السرد الداخليـة بآليات عملية الاستجـابة الأدبية للنص ، أن الانسان لا يستطيع دائما التحكـم في الأوهام التي يخلقها ، أو في الأكاذيـب التي يمنحهـا وجوداً وحياة ، وإن هـذه الأوهام مـا تلبث أن توقع به في قبضتها المحكمة وتتربص به شراً .

لذلـك كان مـن الطبيعي ، وللمجموعـة بنيتها التكـاملية ، أن تجسـد لنا القصـة التاليـة « المحطة الأخيرة » جـانبا مـن جوانـب هذا الشر الـذي يحدق بالراوي في عالم تتمتع فيه الأوهام بقدرة تفوق تلك التي تتشح بها الحقيقة ، فما أن يدلف البطل إلى مقصورة القطار في رحلتـه ، التي لا نعرف لها غاية ، حتى يجد تلك المرأة الجميلـة : إحدى العائشات الـزائفات اللواتي لا يتكشفـن ابدا عن عـائشة الحقيقـة ، وقد اتشحـت هنا بمئـزرها الملىء بـالنمنمات ، ودست وجهها السـاحر في كتـاب سميك تتسلى به طـوال الرحلـة ، وتنشغل بـه عن العالم مـن حولها ، وتـذب به عـن نفسها عبـث الفضوليين الـذين يتسقطـون الفرص للحديث مع امرأة جميلة تسافر وحدها في هذا القطار ولما لم يكن مع راوينا ، وللقصص كلها راوٍ واحد لا يتغير يسردهـا علينا جميعا بضمير المتكلم وكما وقعت لـه ، أي كتاب يتسلى به على تحمل مشقـة الرحلة الطويلـة ، فقد

شغل نفسه بالتفكير فيما عساه يكون أمر تلك المرأة الجميلة ، وما عساها تكون حياتها وترسم له خيالاته حياة مصنوعة من أديم قصص « الوحش والجميلة » التي تولع بالقران بين المتناقضات ، وتعقد أغرب العلاقات بين منتهى الجمال والرقة ، ومنتهى القبح والجلافة الوحشية ، وتتمادى به خيالاته حتى تقتحم أدق دقائق حياتها مع هذا الرجل الفظ الذي جعله الرجل الثاني في عصابة للتهريب ، يستعذب تعذيبها ، ولا يحلو له أن ينضو عنها ثيابها إلا تمزيقا ، ولا أن يأتيها الا عنفا واغتصابا ، وهو رجل لا خلاق له ، يشبعها تعذيبا ويحرم عليها مخاطبة الغرباء ، ويهددها بالقتل إن هربت منه . ويرسل العسس لتحصي عليها تحركاتها .

وما أن تصل به أفكاره إلى هدا الحد حتى يشفق علي المرأة الجميلة . ويشرع في اختطاط الخطط لإنقاذها من براثن هذا الرجل القبيح ، الذي لا يناقضها في كل شيء فحسب ، ولكنه يكبرها كذلك بثلاثين عامًا . وراوينا ، كما لابد أن خمنت أيها القارىء العزيز ، يماثلها عمرا أو هو على الأقل أقرب إليها عمراً وطبيعة . وما أن يعد راوينا الخطط لإنقاذها في خياله ، دون أن ينبس ببنت شفة ، ويصل فيها إلي حد إيداع هذا الرجل الفظ الذي يتحكم فيها ويعذبها وراء القضبان . حتى تنهص المرأة ، وقد ملأها الهول ، وتصفعه بعنف على وجهه وهي تصرخ « ايها النذل ! ما شأنك أنت بي حتى تأتي بهذه الخيالات المريضة ، من أعطاك الحق في أن تتدخل في شئوني ، أو تفكر بالنيابة عني . إنها حياتي ، وأنا حرة فيما أفعله بنفسي» ولا تغمر هذه الصدمة الراوي وحده بالذهول ، ولكنها تصيب القارىء كذلك بالدهشة وهي الدهشة التي ما تلبث أن تتصاعد حدتها عندما يصل القطار إلى المحطة الأخيرة ، ويطل الراوي من نافذته ليجد أن العملاق الذي يناهز الخمسين ، والذي رسمه لها في خياله ، برأسه المفلطحة ووجهه القبيح المليء بالنتوءات ، والعصابة التي تخفي عينه المفقودة في إحدي مغامرات العصابة الخائبة ، واقف ينتظرها على

رصيف المحطة . هنا تتحول الصدمة إلي كشف ويتحول المناخ السحري القريب من مناخات القصص إلى واقع كابوسي مبهظ ، لا تنتهي فيه القصص بالنهايات السعيدة التي تتخلص فيها الحسناء من براثن الوحش ، بل يلقى فيه كل من يحاول أن يعيد للأمور مطقها الطبيعي ويخلص الجمال عامة من القبح ، جزاء سنمار .

وهذا أيضا ما نلمس بعض جوانبه في القصة التالية « شمس الأمهات » التي تتناول جانبا آخر من جوانب هذا الصراع الأبدي بين نوازع التحرر في الشخصية العربية ، وقيود التقاليد التي تشد هذه الشخصية إلى ماضيها ، أن رغبة الراوي المثقف في اختيار شريكة حياته ، ومعرفتها بشكل عصري قبل الزواج ، تتعارض مع تصور كل من الأم الراغبة في تزويجه بطريقتها الخاصة ، ومع تقاليد المجتمع وأعرافه الراسخة ، لكن ذلك الموضوع الذي يطفو على سطح القصة قديم قدم بدايات القصة العربية ، أشبعته مختلف المعالجات القصصية بحثا وتقليبا ، أما الجديد هنا فليس طريقة السرد الفريدة وحدها ، ولا حتى اللغة القصصية المرهفة ، ولكن طرح القضية من منطلق جديد : هو منطلق الإنسان العصري المسكون ، برغم أفكاره الجديدة ، بكل أشباح الرؤى والتصورات القديمة . هذا الطرح هو الذي يتيح للفقيه أن يمارس لعبة الجدل المستمر بين الخيال والواقع ، وبين الأوهام التي تسكن الشخصية وتفاصيل الحياة التي تعيشها بعد أن قررت تحدي التقاليد في الخارج دون أن نفطن إلى أن التحدي الأكبر كامن في التغلب على التقليد والتصورات القابعة في داخل الشخصية لا خارجها ، وأن وهم الحرية غير عملية التحرر الحقيقي الصعبة والمعقدة . ومن هنا تكتسب نهاية القصة المرة وقعها الأليم على القارىء والشخصية علي السواء عندما تضيق تلك التقاليد الداخلية الخناق عليه وتضعه على حافة الجنون بعد أن سلطت عليه جحافل أوهامها ، فيستسلم لما

تمليه عليه من انصياعية قاسية مبهظة ، لا سبيل للفكاك منها غير الجنون . ولا مفر إذا ما رغب في تحديها من جنون من نوع آخر .

لكن تري هل الجنون أكثر سوءا من هـذا الاذعان الرهيب ؟ هذا ما تسعى القصة التالية « الجنون » إلى الإجابة عليـه ، لأنها تطرح علينا آليات الجنون وقد بدأت في التخلق من موقف مستحيل مشابه : موقف انفتاح الأفق للحظة أمام الشخصية ثم انغلاقه مرة أخرى أمام عينيها من جديد : موقف أن يلوح الحلم أو الأمل في الخلاص أمام الانسان ، لكنه ما يلبـث أن ينتزع منه لأسباب غبية ومفارقـات غير مفهومة ، فما ان لمح راوينـا « فرح » التى يجب ألا تخفـى علينا دلالات اسمهـا ، وقد صيغـت مـن هذا المزيـج العذب مـن أحـلام الطفولـة وصبوات الشباب حتى توهم أن العالم قد اخذ يبتسم له ، وحتى سرى تيار من التواصل الداخلي بينه وبين حلمه المبتغى « فـرح » ويعيش عدة أيام وقد امتلأ بالحياة ، وأخذت تتفجر فيه طاقـات الخلق والتواصل والإبداع . لكن « فرح » المبتغاة ، وقد جاءت إليه في الموعد المضروب عبر تيار التفاهم الداخلي الدفين ، مـا تلبث أن تمنعهـا الـروادع والتدخـلات الغبية مـن الاتصـال به إلى الأبـد ، فيسقط في هاويـة الجنون السحيقة : جنون الحرمان من التـواصل ، والبقاء في صحراء العزلة والحصار ، يعاني من الاغتراب وهو لم يزل بعد في وطنه ، ولذلك ليـس غريبـا أن تقل وطـأة عزلتـه واغترابه عنـدما يغـادر بلده . ويلتقـي بهذا «الرجل الايرلندي » تلك الشخصية السـاحرة والساخرة معا والتي تهب اسمها عنوانـا للقصة التـالية التي تـوشك أن تكـون تكملة للقصة السـابقة تـريد أن تخلص بطلها من نير الجنون وناره الموقدة . ذلـك لأن « الرجل الإيرلندي » تعد في مستوى من مستوياتها دراسة في آليات الاغتراب والتواصل . في الوقت الذى تتناول فيه شخصيات المدن وطرائقها المختلفة في التعامل مع الغرباء من أبنائها ومن أبناء المدن الأخرى معا .

أما آخر قصص هذه المجموعة وهى « رسالة اعتذار إلي ليلى من رجل لم يعرف كيف يحب » فإنها القصة التى تسعى إلي موضعة عالم المجموعة في واقعه السياسي والاجتماعي والتاريخي ، دون مفارقة منهجها الأثير في إكساب كل مقولاتها العامة بعدا شخصيا ونفسيا ، بل وذاتيا . لكن تصريحها الافتتاحي : « إني احبك ، إني احبك ، لكنني رأيتك حين دخول جيوش الروم إلي القدس العربية تبتسمين . كنت أداري خجلي وأمسح عن ثوبي دما يتدفق من صدري » يطمح إلى وضع عالم المجموعة ككل في واقعه الحضاري والتاريخي ، واقع سنوات ما بعد الهزيمة ، وسقوط القدس العربية في أيدي الصهاينة أعداء الأمة العربية الألداء . ويسعي أيضا من خلال التركيز علي عنصر الإيقاع الشعري ، ووزن معظم أجزاء هذه القصة عروضيا ، إلي اضفاء وضع خاص علي هذه القصة باعتبارها الحركة الأخيرة في معزوفته القصصية . بحيث أننا لو حذفنا أدوات العطف من كثير مس أجزائها وأجرينا بعض التحويرات البسيطة فيها ، لوجدنا أننا بإزاء نص موزون عروضيا .

ويلعب الشعر ، بتميزه المتعمد عن اللغة النثرية العادية التي يلفنا كتاب القصة بها مجموعة من الأدوار الأساسية : أهمها إثراء الدلالات وتعدد مستويات المعني ، وما يمكن تسميته بعملية التغريب التي تتقصد كسر آليات الإيهام بالواقع أو التوحد مع الشخصيات ، ومنها إبراز اختلاف اللغة وبالتالي الموقف ، عن اللغة اليومية والموقف الواقعي . وهذه كلها من الوظائف الضرورية بالنسبة لهذه القصة خاصة ، وللمجموعة ككل ، ليس فقط لربط كل عالمها الخيالي والحلمى بالواقع أو الإطار المرجعي الذي صدر عنه ، ولكن أيضا لتحقيق ما يمكن تسميته بصدمة التنبيه في نهاية المجموعة . حيث يدرك القارىء من حلال هذه المعزوفة القصصية الجميلة عن ضياع فلسطين ، وعن مسؤليتنا عن هذا الضياع ، وبالتالي عن ضرورة العمل علي تخليص تلك الأرض العربية الجميلة من الأسر ، إن لكل قصص المحموعة مشاغلها

السياسية ، وأن الجانب البادي في تلك النصوص القصصية الشائقة ، ليس إلا أحد مستويات المعنى فيها أو أحد وجوه الدلالة ، لأن وراء هذا الجانب الذاتي الذي يبدو فيه الكاتب مشغولاً بقصص الحب ومغامرات البحث عن المرأة المثال ، مجموعة كبيرة من الهموم السياسية والقومية التي لا تخفي تفاصيلها على القارىء الفطن الليبي . . ذلك لأن هذه القصة الهامة تلفت الانتباه إلي مجموعة من المحاور الأساسية في تجربة هذه المجموعة القصصية . إذ تكشف لنا عن أهمية الالتفات إلي تغير الوجوه دون أن ينطوي هذا التغير في الواقع على أي تغير حقيقي . فقد تتابعت عساكر الروم والفاشية والصهيونية وأمريكا على وجه الأمة العربية دون أن يؤدي هذا التتابع إلي أي تغير حقيقي في جوهر حالة الاستلاب التي تعاني منها حبيبته العربية « ليلى» ، أو يوهن من مسؤلية بنيها الذين لم يعرفوا كيف يحبونها فيحول حبهم ذلك بينها وبين السقوط .

عن صحيفة العرب ـ لندن ـ ٣٠/ ١١/ ١٩٨٧

صفحة فارغة

مرايا فينيسيا

وأخيراً فينيسيا
أسطورة الماء والحجارة
قدح النبيذ المعصور من كروم الآلهة
عرس الفن والجمال الذي يتجدد بتجدد الفصول

هأنذا احقق حلم الوصول إلى عتباتها المباركة. اتنسم عبق تاريخها. أعلق البصر بشرفاتها العالية وكأن لي حبيبة تنتظرني في كل شرفة. اتأمل النقوش والزخارف التي تزين أبوابها وجدرانها ومراياها. اكحل البصر بعرائش الورود التي تتسلق قرميد أبنيتها الحمراء. أدخل الدائرة السحرية التي تفصلها عن عالم الحروب والصراعات وتجعل منها مكانا فريدا، يسبح في زمن قديم أبهى وأجمل من هذا الزمان. هأنذا أتحول إلى جزء من هذا المشهد الاحتفالي الذي تضج به شوارعها وقنواتها وقناطرها، وتغمرني أمواج البهجة التي تفيض من وجوه اهلها وزوارها، فأنزع وجهي القديم واستبدل به وجها جديدا، وسيما، يليق بمجد بهائها.

لقد هفهفت أشرعة القلب اليها، سنين قبل هذه الزيارة، التي ظلتْ حلما لا يفارق ذاكرتي منذ أيام الصبا، تغذيه الأغاني والافلام وكتب التراجم والرحلات وقصائد الشعر التي منحتها لقب «اجمل مدينة في الدنيا». جئت إلى روما في عمل صحفي، وما أن انتهى العمل، حتى بدأت أيام الحج إلى هذه المدينة.

وصلتها في ساعة متأخرة من الليـل ، واخترت غرفة بفندق صغير يشبه بيتا عائليا ويطـل علي القناة الكبرى ، فلم أنم سوى سـاعتين ، استيقظت بعدهما مفعما بالحيوية ، متلهفا لأن اعانق فينيسيا وأطفيء حرقة قلب ظاميء للقائها .

هأنذا أثـب فرحا فوق جسورهـا التي لا تحصى ، وأطوف كـالمجذوب بكل تمثال من تماثيلهـا ، أو نافورة ماء مـن نوافيرها ، وأغوص في زحـام الفرح الذي يصنعه أقـوام جاءوا مـن شتى بقـاع الأرض ، لينعموا ببهجـة اللقاء فـوق هذا الارخبيل الصغير مـن جزائر الحلم . فأجـد أن الألفة التي تصنعها فينيسيـا قد ربطت بيني وبينهم ، وصرت أتبادل الحديـث معهـم في يسر وعفوية ، واشارك في الحفلات الـراقصة التـي يقيمونها حول العـازفين المتجولين ، وأركـب معهـم المراكب التـي تأخذنا في نـزهة عبر قنوات المدينة ، وأردد بعـض كلمات الاغاني التي يتفنن الملاحون في ترنيمها .

كنـت قد احترت أن أتجول في دروب المدينـة دون خطـة مسبقة ، مستمتعـا ببهجة الاكتشاف والمغامـرة ، التي سوف تفسدها الخرائط وكتب الـدعاية ، أو حتى الاستعـانة بـالأدلاء والمرشدين السيـاحيين . كنت أركـب العبارة دون أن أعرف وجهتها ، وأمضي مع الطريـق دون أن أعرف إلى أين يفضي ، تثير مخيلتي المشاهد التي ألتقـي بها صدفة ، بما في ذلك سوق الغلال الـذي قادني إليه هذا التوهـان الجميل . فـوقفت ذاهـلا اتفرج على معـروضاتـه وقد تفنـن اصحاب الدكـاكاين والعـربات في رصها وتصفيفها ، وصنعـوا منها أشكالا وتكـوينات فنية ، يراعى فيهـا حساب النسب وتجانس الألوان ومواقـع الأضواء والظلال ، وتتحـول حبات البرقـوق والعنب والطماطـم إلى تحف ذات قيمـة فنية تتجـاوز قيمتهـا كطعام للبطـون . كـان سوق الخضـار هـذا اكتشافـا ، بمثـل ما كـان اكتشـافا مـدهشا ان أجـد نفسي أسير في مـدينة لا تـدخلها السيـارات ، وأن بإمكاني ان اتنقـل حرا بين الأرصفة وأمشي وسط الشـارع ، دون أن أخشى على

نفسي الموت بين مخالب تلك الحشرات الحديدية الكريهة ، ذات الدخان والعواء . إن غياب السيارة يؤكد في نفسي هذا المعنى الذي يجعل من فينيسيا مدينة تنتمي إلي زمن آخر، وعالم آخر، مدينة لا تشبه إلا نفسها .

كنت قد وصلت إلي أكثر ميادين فينيسسيا شهرة ، ميدان سان مارك . عرفت وأنا أركب الجندول أننا نقترب منه قبل ان نصل اليه . فقد لاحت من بعيد قباب البرج وكنيسة سان مارك وقصر الادواج ، كما لاحت واجهات الابنية التاريخية التي تعج شرفاتها وأسطحها بالتماثيل ، وظهرت أفواج الحمائم التي ترفرف فوق تلك القباب والاقواس والحراس الحجريين ، وتناهى إلى سمعي صوت العزف الاوركسترالي تعزفه فرقة عرفت فيها بعد أنها تتخصص في عزف موسيقي فاجنر، الذي أقام زمنا يؤلف سيمفونياته في بيت يطل علي الميدان . وما أن وصل الجندول إلي الرصيف ، حتى انبثق امامي ذلك المهرجان من الأضواء والألوان والإيقاعات . الدكاكين التي تبيع التحف والهدايا . المقاهي ذات الواجهات المصنوعة من زجاج ملون ، وما اكتظت به من مرايا ولوحات وزخارف . كرنفال الأزياء التي يرتديها السواح وما يصنعونه من ضجيج بإنشادهم ورقصهم وآلات تصويرهم . دخلت الميدان ووقفت امام مقهى «فلوريان» استحضر قراءاتي عن هذا المقهى الذي شهد مجالس الأدباء الذين قضوا وقتا هنا يتبادلون الأنخاب مع أصحابهم وصاحباتهم ، الفونس دوديه ، جورج ساند ، جولدوني ، اوسكار وايلد ، توماس مان ، هيمنجواي . انثالت على الذاكرة مشاهد المسرحيات التي اتخذت من هذا المكان ميدانا لأحداثها . هنا وقف شايولوك تاجر البندقية الشهير يطالب غريمه انطونيو برطل من لحم جسمه ، وهنا كان ياجو ينسج مؤامراته ضد عطيل مستخدما ديدمونه وكاسيو وريدريجو وايميليا ، وهنا كان كازانوفا يتسلق الشرفات إلي مخادع حبيباته . ها هو الفن يضفر خيوطه بخيوط الواقع ، ويعزز عمق الوشائج التي تربط بيني وبين هذه المدينة ، ويجعل من زيارتها عيدا لاتضاهيه أعياد اخرى تأتي بحكم

العادة والروتين ، لا بحكم العلاقة الحميمة التي تبني جسور حب تشدنا إلى المكان والزمان .

رأيت وانا أطوف الميدان فتاة ترتدي قميصا قطنيا يظهر جمال نهديها ، وترفع إلى فمها كوب الآيس كريم الذي أضفى توردا على شفتيها ولسانها ، وقد وقفت بمفردها أمام تمثال علي اعتاب قصر الادواج ، فاقتربت منها ، ووقفت إلى جوارها أتأمل تمثال الأسد المجنح الذي جعلته فينيسيا شعارا لها ، وأحاول أن استذكر الأسطورة التي ارتبطت به والتي جعلت منه كائنا حقيقيا يحرس المدينة . كنت قد أعددت بعض الكلمات لأستهل بها الحديث مع هذه الأنثى الشهية ، بأمل أن أفوز بقضاء ساعة او ساعتين في صحبتها ، وقبل أن أفتح فمي بالكلام ، تنبهت فجأة إلي الرجل الذي يقف علي مسافة أمتار مني ، وينطرح ظله تحت قدمي . وداهمني يقين جازم بأن الرجل يتبعني ، إذ ليس صدفة أن اراه في ثلاثة مواقع مختلفة يقف قريبا مني . ظننت وجوده في المرتين السابقتين مجرد صدفة ، وقد سقط الآن حساب الصدفة ، ولم يبق سوى حساب الخطة التي يدبرها لي هذا الرجل . هذا ما صار يشغل ذهني ، بحيث لم تعد فيه مساحة للمرأة او التمثال . تركتها ، ومشيت مسرعا اخترق الجموع التي تتزاحم حول الرسامين والموسيقيين وتلتقط الصور التذكارية بصحبة حمائم الميدان . ولم اقف حتى وصلت الجانب الآخر . وعندما استدرت لأرى ماذا فعل ، وجدته قد ترك مكانه وجاء يتبعني ، ثم وقف محتميا بعدد من الناس لكي لا آراه وهو يراقبني . تحولت إلي كتلة أعصاب مشحونة بالغضب . ما الذي يدبره لي هذا الرجل؟ وما الذي يريده مني؟ وأي شيطان ساقه لمطاردتي؟ لم أستطع ان اجد تفسيرا ، ولم اعرف كيف سأواجه هذا الموقف الذي باغتني وأنزل الخوف في قلبي . وجدت نفسي مرة أخرى ابحث عن نقطة أمل في ان الرجل لا يطاردني وانما هو سائح مثلي ، اثار فضوله شيء في سحنتي وطريقة ملبسي ، فأنا فعلا أرتدي طقما كاملا ، بخلاف أغلب الناس الذين ارتدوا

ملابس خفيفـة تتفق وهذا الشهر الذي ينبىء بمجـيء الصيف . أو لعله رآني أشبه شخصـا يعرفه واراد أن يتـأكد من ذلـك فجاء ورائي . وهأنـذا أقف الآن أمامه معزولا عن الزحام ، ليدرك أنني لا أعرفه ولا يعرفني ، وأن عليه أن يمضي في طريقـه ويتركني . سرت بمحاذاة الحائط ، حتى صـادفني متجر يبيـع المرايا والتحف الـزجاجيـة ، فدخلتـه ، كان متجـرا كبيرا يشبه متـاهة المرايـا في مدن الملاهي ، يفضي إلي مقصـورات علوية ، ممـا يوحي بانـه قصر قديم أحـالوه إلى متجر للسـواح . صعدت السلالم واجتـزت ممرا طـويلا حتى وصلـت إلى أبعد هـذه المقصـورات . ولم تمض سوى بـرهـة قصيرة حتـى رأيـت صورة الـرجـل معكوسة في المرايا التي تغلف الجدران . غـائر الخدين ، ذو سحنة ترابية ، تبرز عظام وجهـه وجبينه بـروزا منفرا ، وقد صنعـت له أواني الزجـاج ندوبـا تغطي وجهه الـذي تشظى وتكسر فوق هذه المربعـات والمكعبات فبدا كـأنه عشرات الرجال الذيـن يحاصرونني بملامح شائهة ممسوخـة . استدرت نحوه ، وألقيت عليه نظرة اشمئزاز. ثـم اندفعت أهبط السلالم ، وما أن وصلـت خارج المتجر حتى انعطفت بسرعة في شارع جانبي واخذت أعدو. بكل ما أملك من خوف صرت أعدو وأعدو، فلعلني استطيع ان افلت منه ، وان لم استطع ، فيكفي انه لن يـدركني في هذا الـزقاق الفارغ الذي ادارت فيـه الابنية وجهها إلى النـاحية الاخرى . ألقيت نظرة من فوق كتفي وانـا أعدو، فإذا به يعدو خلفي . وصلت إلي الباحة التي يفضي اليها الزقـاق ، منهكا ، مقطوع الأنفاس ، ألهث وانتفض شهيقا وزفيراً . وضعت يـدي على صدري ووقفت بين الناس أتلفـت حولي في ذعر. انها اول مرة في حياتي اواجه فيها موقفا كهـذا . لعلني كنت موضع مراقبة في زمن مضى ، ولعلني اهتديت إلي مخبر يتصنت علي حديثي في المقهى ، ولكن ان ارى رجلا لا اعرفه يطاردني و يعدو خلفي ، فهـذا ما لم اصادفه خلال خمسة واربعين عاما من وجودي فوق ارض البشر. وفداحة المأساة ان هذا يحدث لي في مدينـة ازورها لاول مرة . وازورها بمفـردي ، لا احد معي ولا اعـرف احدا ألجأ

اليه. تحركت من مكاني دون ان احدد هدفا امضي اليه. تعطلت كافة الملكات والحواس التي كانت تستقبل بالفرح والاندهاش مظاهر الحياة في هذه الباحات والاسواق صار ذهني كله مشدودا إلي هذا الرجل. استطيع ان اراه يسير خلفي حتى وان لم التفت اليه. اسمع خطاه وحده رغم آلاف الاقدام التي تضرب الارض. ألتقط صورته حتى وهو غاطس وسط الزحام، وأميز ظله من بين كل هذه الظلال التي تقف وتمشي وترقص. صادفت صندوق الهاتف العمومي ففتحت الباب ودخلت الغرفة الزجاجية الصغيرة، بأمل ان يمنحني وجودي في هذا الصندوق، منفردا بنفسي، شيئا من الاحساس بالامان، وكأنني اخدع نفسي وأوهمها بانني اختفيت منه في احدى المغارات. ولكنها للأسف مغارة من زجاج، لا تخفيني عنه ولا تخفيه عني. سأتظاهر بانني اهاتف احد الناس، لكي أبرر وجودي وسط هذا الصندوق. رفعت السماعة، وأدرت قرص الهاتف، وألقيت كاذبا بالعملة المعدنية في الحصالة، وصرت أتكلم وأشير بيدي نحوه، لعل هذه الحيلة تقنعه بانني لست وحدي، وأنني استنجد الآن بعدد من صحابي الذين سيأتون لمؤازرتي، ولكنه يتسمر في مكانه دون أي اعتبار لهؤلاء الاصدقاء الوهميين. أطلت البقاء في الصندوق لأمنح نفسي فسحة للتفكير والاهتداء إلي طريقة تخرجني من هذا المأزق. لاشك أنه عرف بأنني غريب ووحيد في هذه المدينة، واعتبرني صيدا سهلا يستطيع ان يسلبه نقوده تحت تهديد السلاح حال ان ينفرد به في مكان خال. او لعله مكلف بمهمة تصفيتي لحساب شركة من الشركات المتعددة الجنسية، ذات العلاقة بالمافيا العالمية، عقابا لي لانني شاركت في احدى الحملات الصحفية ضدها. انني هنا في بلاد المافيا، والقتلة الذين يبيعون مهارتهم الاجرامية نظير حفنة من الليرات، فما الذي يمنع ان يكون الامر كذلك؟

سأخرج الآن من هذا المربع الزجاجي، ولكن إلى أين؟ لابد ان اخرج. فقد نشأ طابور صغير ينتظر ان يستخدم الهاتف ومنهكا، يائسا، أغطس في

سحابـة من الافكـار السوداء، خـرجت أجـر اقدامـي عائدا إلى ميـدان سان مارك. سأحتمي هناك بالزحام والحمام والتماثيل والتصاوير والموسيقى وسأنتظر ان يفرد لي تمثال الاسد المجنـح جناحيه، فاستخدمهما بساطـا سحريا يطير بي وينجيني من شر هذا الرجل. عقلي عاجـز عن الاهتداء إلي طريق للخلاص، لا أرى حلا لمشكلتي إلا بحدوث معجزة.

ها هـو ميدان سان مـارك، الذي كـان كعبة احلامـي، يتحول إلى مسرح لأكثر الكـوابيس رعبا. لقـد أفسد هذا الرجـل كل شيء. تهالكـت فوق أول كرسي صـادفني وطلبت كـأسا من عصير البرتقـال أجفف به حلقـي. جلس الرجل إلى طاولة قريبة، وأومـأ إلي رجل يقف في الزحام، فجاءه مهرولا. همس له ببعض الكلمات وأشار اليه ان ينصرف. تيقنت من أنه صاحب سطوة ونفوذ بين افراد عصابته، وانه يستنفرهـم لإحكام الحصار حولي. تجولت ببصري بين زبائن المقهى، بـأمل أن تسعفني الاقدار برؤيـة انسان اعرفه ليكون طـاقة امل تخرجني مـن كهوف الرعب. يـرتد بصري خائبا، فـلا أجد سوى هذا الـرجل الذي أحس بـدبيب نظراته فوق عنقـي وظهري. هل اذهب اليـه الآن واسأله بكلمات صريحة عما يريده مني، فـإن كان نقودا، سأمنحه كل مـا معي لاعتق نفسي. لكنني اخشى ان يكون الرجل بانتظـار مناسبة كهذه ليشتبك في عراك معي، ويغرز سكينه في صدري، معتمدا على انـه سيجد من زبائن المقهى من يشهد بانـنـي انا الذي ذهبت اليه حيث كـان جالسا وبادرته بـالعراك. طردت الفكرة من رأسي، كما طردت فكرة اخرى تدعـوني للاتصال بالشرطة. اذ ماذا سأقـول لهم عندما يفتحون لي محضرا ويسـألونني لماذا وكيف ومتـي واين، واذا قلت مـا اعرف فهل سيصـدقون روايتـي التي لاتقدم تبريـرا لهذه المطاردة ولا سببا، واذا صدقوهـا فما الذي سيفعلونه. لعلهم سيضعونـني في الحجز حماية لي، فهـل هذا مـا أريـده، او لعلهم يستريبـون في امـري ويبـدأون هـم ايضـا بمطاردتي، وتكون النتيجة أني أدرأ شرا بشر اكبر منه. وانتهى تفكيري إلى انني

لم اقم بما يكفي من جهد لكي اراوغ الرجل واتحايل عليه حتى اضيع منه في الزحام. يجب ان استعين بكل ما يمكن ان اهتدي اليه من فنون المكر والمراوغة حتى أضلله واهرب منه. حاسبت عامل المقهى، وسرت متمهلا باتجاه الرصيف الذي تقف عنده المراكب. صرت ازاحم الناس كي اوهمه بانني سأركب مع الراكبين، وما ان بدأ المركب يأخذ حمولته حتى احنيت رأسي ليكون دون مستوى الزحام وتسللت بسرعة إلي حانة قريبة هي حانة «هاري». كانت الحانة تكتظ بالدخان والزبائن وصور أرنست هيمنجواي المعلقة علي الجدران باعتباره صاحب الفضل في شهرتها عندما أشار اليها في بعض اقاصيصه. حانة تشبه المغارة، صغيرة وضيقة ومعتمة، زادها ضيقا هذا الجزء الذي اقتطعوه وجعلوه مطعما. ولأنني لست صاحب مزاج يأنس لمثل هذه الحانات، فقد أحسست بهذا الجو الخانق يضيف ضيقا إلى ضيقي. ولكنني أرغمت نفسي على البقاء، بأمل ان اكون قد افلحت في تضليل الرجل الذي يطاردني. ورغم نفوري من تناول الخمر، فقد قررت ان اشرب كأسا، عله يساعد في تبديد هذا الضيق. طلبت كأسا من الكحول مخلوطا بعصير الفاكهة لكي استسيغ ابتلاعه. ألقيت به في جوفي، واتبعته بكأس ثان. احسست بالكحول يحرق صدري، ولكن شهابين احسست بهما يكويان ظهري وينسياني حرقة الخمر. كان الرجل يقف وسط زحام الحانة خلفي، بنتوءات وجهه المعصور، وعينيه الغائرتين وسط عظام الجبهة، كأنه تجسيد لوجه ملاك الموت الذي يرسمه الرسامون على صورة جمجمة. وألهمتني هذه الفكرة التي تربط بين وجهه وبين ملاك الموت فكرة اخرى. نحن جميعا نعرف ان الموت يطاردنا، ولا ندري في اية لحظة او في اية بلاد سوف يباغتنا، ومع دلك نهمله ونتناساه لكي لايفسد التفكير فيه حياتنا. فلماذا لاأتعامل مع هذا الرجل بذات الاسلوب. لماذا لا اطرده من فكري وأنسى انه يتابعني، واحاول ان انعم بأجازتي كغيري من السائحين. خرجت من الحانة وقد قررت ان استأنف جولتي منذ تلك

اللحظة التي قاطعني فيها هذا الرجـل . سأعود إلى حيث كنت أقف امام اسد الاسطـورة ، وسـأبحـث عـن ذات المرأة التـي كانـت تلعـق الآيـس كـريـم ، وسأستحضر ذات الكلمات التي كنت سـأقولها لها ، لأقولها الآن ، وسأعتبر ان هذا الـرجل لا وجود لـه فوق الارض ، لكـي أستطيع ان اهنأ بحيـاتي ، وأنسج علاقة حـب بمثل ما كان يفعل الأدبـاء الذين زاروا فينيسيا ، هـذه المدينة التي قدمـت للدنيـا اعظم عاشـق في التاريخ ، ودارت فـوق ارضها اعظـم قصص العشق التـي سجلها كازانوفـا في مذكراتـه . وإذا كانت تلك الفتـاة التي تحب الآيس كريم ، لم تستطع انتظاري كل هـذه المدة ، فها هي سائحة اخرى تقف والبسمة لا تفارق ثغرها وسط حلقة تنعقد حول فرقة غجرية من ضاربي الطبل والجيتار. تسللت قريبا منها ، وألقيت بتعليـق عابر يحمل الاعجاب بما أسمع وسألتهـا رأيها كأننا اصـدقاء قدامى . اكتشفـت انها لا تجيد الانجليزيـة فهي طالبة ايطالية تدرس الفنون في جامعـة فيرونا القريبة ، اسعفتني الذاكرة ببعض الكلمات الايطالية الدارجة التي اختلطت بـاللهجة الليبية منذ ايام الصراعات والحروب بين البلـديـن . وجاء ذكـر فيرونـا ، فكـان لابـد ان يأتي ذكـر روميـو وجولييت وقصة هذا الغرام الذي اقترن بمدينتها . بدا الجو عامرا بالألفة والمودة والدفء الانساني ، يفتح الشهية للمرح والاحتفال بـالحياة ، مما أغراني بأن أعيد ترتيـب المشهد من جديـد ، وأجعل هذه الفتاة تـأخذ شكل المرأة التي فـارقتها بجوار التمثـال . اشتريت قطعتين مـن بائع الآيس كـريم ووضعـت واحدة في يدهـا ، لأرقب بعد ذلـك جمال وإغراء هذا التـورد الذي طرأ علي فمهـا وطرف لسانها . وجاءت دقات الطبل تضرب مراكز الحس وتطرد الخمول والاستكانة ، فانشأ الناس حلقة ترقص حول العـازفين وتشملني معهم ، فأشاركهم الرقص والتصفيـق والغنـاء . تصورت انني فعـلا قـد نجحت في اعـادة السكينـة إلي نفسي ، ولكن ذلـك لم يستمر غير لحظات قليلة ، لأنـه ما ان توقف الـرقص ، حتى وجدت نفسي في مواجهة ذلك الرجل . كنت مازلت مصمما على إهماله ،

راغبا في ان اتمكن من متابعة برنامجي حتى أري كل معالم المدينة، لكي لا اغادرها بقلب تملأه الحسرة لانني اغفلت رؤية اثر واحد من آثارها. ذهبت فتاة فيرونا بصحبة اترابها، وواصلت انا التسكع على ضفاف القناة الكبري التي تسميها كتب الرحلات، أجمل شارع في الدنيا. شارع من ماء، تتهادى فوقه المراكب التي تشبه متاحف عائمة، وتحف به البيوت التاريخية التي تنطق بثراء فينيسيا في فنون العمارة، وتنتشر علي ضفتيه المطاعم والمقاهي واندية اللهو التي تتبارى في ارتداء أبهى الزينات، ولكن من اين لي عقل يستوعب هذا الجمال، والرجل لا يغفل عني لحظة واحدة. جاءت رائحة الطعام تذكرني بانني لم اتناول طعاما منذ إفطار الصباح، فدخلت مطعما لبيع المأكولات الخفيفة، وتناولت قالبا من مكرونة الفرن دون شهية، ثم دخلت الحمام فأفزعني منظر وجهي في المرآة وقد انعكست فوقه تعاسة البشرية منذ بدء الخليقة. ازداد فزعي وأنا أعود إلى الشارع وأرى الاضواء قد بدأت تسطع فوق واجهات المحلات وتمنح فينيسيا وجها ليليا اكثر جمالا من وجهها النهاري. وارى الشمس قد بدأت تسحب خيوطها وتأذن بهبوط الظلام. سوف تمتليء المدينة بالاركان المظلمة الخاوية التي تغري المجرمين بارتكاب جرائمهم، وما أسهل ان اصبح هذه الليلة الضحية التي تتحدث عنها اخبار الحوادث في اليوم التالي. يجب ان اعود حالا إلى الفندق، فلابد ان هناك مساحات من الفراغ والظلام، يمكن للرجل ان يصطادني اثناء سيري بها لو رجعت متأخرا. أخرجت من جيبي بطاقة تحمل عنوان الفندق، واتجهت والرجل يتبعني، ابحث بين الارصفة عن مركب يذهب إلى هناك. لم اكن وانا فوق سطح المركب املك مزاجا أتأمل به السحب المخضبة بشتى الألوان وما تركته من أثر فوق الماء، ولم يكن يعني لي شيئا مشهد الشمس الغاربة التي ذاب لونها في القباب البعيدة الحمراء التي تبدو مثل لوحات محفورة في الافق. ما كان يشغلني هو ان تتباطأ الشمس في غروبها وتمهلني قليلاً حتى اصل إلى الفندق. تنفست

الصعداء عندما رأيت الطريق إلى الفندق عامرا بالناس والاضواء والحياة، ولكن الفندق نفسه كان هادئا، صامتا، لا صوت ولا صدى، كأنه بيت الأشباح، عدا موظف الاستقبال العجوز، يقرأ كتابه صامتا، جامدا كأنه تمثال من الشمع. فندق صغير بلا نجوم، ولا صالة استقبال ولا مطعم ولا حانة، عدا هذا الركن الذي يخصصونه لتقديم وجبة الأفطار. لمحت الشوك والملاعق والسكاكين فوق موائد الافطار، فاتجهت إليها وتناولت سكينا وضعته تحت سترتي. ثم أخذت المفتاح وصعدت سلما حلزونيا إلى غرفتي في الطابق الأعلى. فتحت الغرفة ووقفت عند الباب استرق السمع. كنت قد تركت الرجل واقفا امام الفندق، ولكن من أدراني انه لم يرسل شريكا له يترصد لي داخل الغرفة. أضأت النور ودخلت أفتش تحت السرير وداخل دولاب الملابس وخلف باب الحمام لأرى إن كان أحد يختبئ هناك. كانت أصابعي قد تشنجت فوق مقبض السكين وانا ارفعه امامي، وكان مصباح الغرفة يصنع لي ظلالا تبدو كأنها مشهد من مشاهد الاثارة في افلام العنف والجريمة. أقفلت باب الغرفة بالمفتاح وتربسته برتاج داخلي، ثم ذهبت إلى النافذة وألقيت نظرة على الجدار الخارجي، كان الجدار ينغرس في ماء القناة، أملس، خاليا من المواسير والنتوءات التي يمكن ان تساعد المجرمين علي التسلق إلى نافذتي. اقفلت خشب الشباك وتركت زجاجه مفتوحا، لكي لا أسد كل منافذ الهواء، وانتبهت إلى وجود طاولة وكرسي عند زاوية قرب السرير، فسحبتهما ووضعتهما خلف باب الغرفة. ووقفت أعاود النظر في السقف والجدران، واضرب بقدمي الأرض المغطاة بالموكيت لاطمئن إلى سلامتها، وانها خالية من أية عيوب يستغلها المجرمون في التسلل إلى الغرفة. ودون ان أستبدل ملابسي، او اخلع حذائي، جلست فوق السرير، في حالة استنفار ويقظة، مستعدا لالتقاط أصغر نأمة او حركة. كنت استطيع أن استنشق رائحة البحر والرطوبة، وأسمع الغناء ذا الطبيعة الاوبرالية، او العزف الذي يأتي من اماكن بعيدة، كما

استطيع ان اسمع هدير محركات المراكب التي تسير في القناة اسفل النافذة. ما كان يهمني هو هذه الاصوات التي تتناهى بين الحين والآخر من داخل الفندق، صوت باب يفتح، او وقع اقدام تعبر الممر، فاستنفر مداركي لأعرف مدى اقتراب هذه الاصوات من غرفتي. وبرغم الاصوات البعيدة والقريبة، فان الذي يهيمن علي اجواء الغرفة، في هذا الوقت المبكر من الليل، هو الصمت. بل ان هذه الاصوات تجعل الصمت في الغرفة اكثر كثافة وقبحا. اردت ان ابحث في حقيبتي عن المذياع الصغير، الذي لا أسافر إلا به، ثم عدلت عن ذلك خشية ان يحجب عني صوت خطى المجرم اذا اقترب من بابي. بيني وبين مجئ الصباح، زمن كأنه الأبد، فكيف سأحتمل الانتظار وسط متاهة الليل؟ وكيف ياترى يفعل السجناء الذين يقضون الاعوام في عتمة الأقبية والزنازين؟ الكارثة انني هنا اسجن نفسي بنفسي، وأمنعها من الاستمتاع بليل فينيسيا العامر بشتى فنون التسلية، الأكثر من ذلك أنني مهدد بالقتل او ما هو اشر من القتل. انني لم اجرب شعورا كهذا من قبل. لقد أمضيت ليلة في الحجز ايام الصبا، بسبب اشتراكي في مظاهرة طلابية، ولعلني شعرت بالقهر والألم وانا ارى نفسي خلف القضبان. ولكن ما اشد الفرق بين الليلتين. كانت تلك الليلة برغم آلامها، عرسا وطنيا نتيجة ما كنت ألقاه من تعاطف الحراس وزملاء الحجز، وانتهت لتصبح رصيدا في النضال أتباهى به فيما بعد. لم يكن هناك قاتل يتعقبني، كما يحدث هذه الليلة، التي ما اظن احدا سيحتسبها نضالا يضيفه إلي تاريخي الوطني. السكين في يدي مايزال، وانا لا أفعل شيئا سوى ان أحملق في الجدران العارية، المطلية بلون رمادي يخفي آثار الرطوبة، وصورة المسيح وهو ينام هانئا فوق صليبه، معلقة فوق سريري، والكتاب المقدس مربوط إلي الحائط بسلك معدني ملقى فوق الكوميدينو، مكتوب باللاتينية التي لاسبيل إلى فك رموزها او الاستنجاد بصلاة من صلوات الرحمة التي يضمها الكتاب. وددت لو أطلق صرخة أمزق

بها سحب الضيق التي تملأ صدري، وأرسلها عـالية في جوف الليل لعل احدا من سكان كوكب الارض يأتي لنجدتي. لقد قـايضت الامان داخل هذه الغرفة بالباحات الكبيرة والسماء المفتوحة وملذات الروح والجسد التي تقدمها فينيسيا لـزبائن الليـل. ولكـن أين هـو الأمـان؟ لابد لي مـن هـواء استنشقه لكـي لا أختنق. غـامرت بفتـح باب الشبـاك ووقفت امـلأ صدري بـالهواء النظيف. تلألأت عنـاقيد الضـوء في أجواء المدينة وانعكسـت ترقص رقصـة مرحـة فوق صفحة الماء. وتـدافعت مـع موجـات الهواء اصوات المغنين والعـازفين، فلم يزدني المشهد البهيج إلا تعـاسة. سمعت حركة في غرفـة مجاورة، ورأيت نافذة مضيئة تحاذي نـافذتي، فخشيت ان يباغتنـي منها المهاجمون. اقفلـت الشباك وعدت إلى السريـر أفكر في هـواني وضعفي، وأنـا ارى نفسي محاصرا مثل فـأر داخل المصيـدة. لاشك ان الامر كـان سيختلف كثيرا، لو ان مـا يحدث معي الآن، حدث في مكان آخـر اعرفه واعرف اهلـه، ولكن ماحيلتي وانـا أتعرض لهذا الاجتراء على حياتي وحريتي في مكان غريب مثل هذا المكان، ومدينة تقع بأقصى أطراف الـدنيا مثل هذه المدينة، وفوق أرخبيـل من الجزر تحاصره أربعة بحار، بعيدا عن اهلي وبيئتي وكل ما تآلفت معه من بشر وأشياء. أمامي أكثر من عشر سـاعات أخـرى قبل ان يبزغ ضـوء النهار. فهل أبقـى قابعـا في هذا المربع الاسمنتي لا أفعـل شيئا سوى الانتظار والترقب وممـارسة طقوس الخوف بما فيها ترديد بعض الأدعية والتسابيح. هـل أغامر الآن واترك الغرفة عائدا إلى اضواء وهواء وزحام الشوارع، حتى لو كان الثمـن مواجهة مرعبة مع القاتل. ولكي لا أصاب بالجنون، أخرجت المذياع، باحثا عن محطة عربية. أحسست بشئ من الارتيـاح وانا أسمع صوت عبد الـوهاب يغني وسط العـواصف التي تصنعها موجات إرسال بعيدة:

ـ انا والعذاب وهواك

هذه أغنية رجل يتعذب وحيدا ، ولكن ما أعظم الفرق بين عذابه وعذابي . يشرد فكري مع كلمات الاغنية ، يبحث في تهويماته عن فسحة حرية خارج هذه الغرفة وخارج هذه المدينة ورطانتها الأجنبية ، يلعب لعبة تعويضية تبعده قليلاً عن لعبة الموت هذه. اشتات من ذكريات لا يجمعها نسق ولا منطق . زوبعة من الغبار تنشأ نتيجة عراك بيني وبين عدد من الصبيان ترصدوا لي في ساحة القرية. كان الخوف يشل قدرتي علي رد اللكمات والصفعات ، فكنت أصرخ وأرفع ذراعي لأحتمي بهما من شراسة المهاجمين . ولكن يدا تأتي لتنتزعني من وسط العراك . يد رجل كبير جاء يطرد الأولاد وينقذني . سطل من الماء تدلقه إحدى نساء العائلة وراء السيارة التي تنقلني من البيت إلي المطار، جلبا للفأل الحسن الذي سيعيدني سالما إلى البيت . انا والعذاب وهواك . انتهت الأغنية ولكن اصداءها ظلت تتردد في ذهني . طائرة تطفو فوق أمواج السحب ، ومضيفة تأتي باسمة ، لتحيتي ، لأنها ألفت وجهي لكثرة ما أقوم به من رحلات صحفية :

ـ ماذا ستكتب في رسالتك من ايطاليا؟

ـ وهل هناك ما هو أكثر إثارة من المافيا؟ سأكتب عنها طبعا .

قلت ذلك مازحا ، وهأنا الآن وسط مشهد من المشاهد التي لا نراها الا في أشرطة العنف التي تتحدث عن المافيا . انا والعذاب . . ولا أدري بعد ذلك كيف استطعت وانا في هذه الحالة من التوتر والفزع ، ان انتقل من كوابيس اليقظة ، إلي كوابيس النوم . كانت الغرفة قد بدأت تعج برجال لا ملامح لهم . اشباح تقتحم الباب والشباك ، وتنبثق من ارض الغرفة ، وتهبط من السقف وتصنع دائرة حولي . يتجمد الدم في عروقي وانا اراها تقترب مني ، وتمد نحوي اذرعها الطويلة التي يغطيها الوبر الكثيف ، واصابعها التي تشبه المخالب ، وقبل ان تطبق على عنقي سمعت طرقا على الباب ، فنهضت من رقادي

مفزوعا، أبحث عن السكين الذي سقط اثناء النوم، تناولته وانا اهرع إلى الباب والتصق به اسأل من الطارق.

ـ بونجورنو سينيور.

كانت عاملة النظافة تبحث عن غرفة لتنظيفها.

ـ اونا مومينتو سيبيورا.

لحظة ايتها السيدة الايطالية التي لا تعلم رعب هذه الحلقة من حلقات الجحيم التي احاطت بي. وقفت برهة انفض عن رأسي كوابيس الليل، قبل ان افتح الشباك وأرى النهار ينشر غلالات ضوئه فوق فينيسيا التي بدت تحت أبخرة الصباح وديعة وهادئة وغامضة. ازحت الطاولة والكرسي من خلف الباب واعدتهما إلى مكانهما قرب السرير، وهبطت إلى قاعة الافطار حيث يجلس بعض زبائن الفندق. أقتحمتهم بنظراتي بحثا عن الرجل الذي يطاردني، وعندما لم اجده، جلست. سأتدبر وسيلة لحجز مقعد في أول طائرة تقلني إلى مطار روما ومنه إلى طرابلس، لن أقضي ليلة رعب اخرى في هذه المدينة. كانت التذكرة التي جئت بها من روما، تذكرة أسبوعية مخفضة لا تتيح لصاحبها العودة قبل انقضاء عطلة الاسبوع، أي بعد ثلاثة ايام، ولكن النقود التي تبقت معي سوف تسعفني لدفع الفرق او شراء تذكرة جديدة. أكملت افطاري، واتجهت إلى باب الفندق. لاشك انه يقف الآن بانتظاري، بملامحه الابليسية المحنطة وعينيه الخزفيتين. لا أدري كيف قضى ليلته، فلعله قضاها واقفا، أو نائما وهو واقف. ما عساه يفعل وهو يراني بعد قليل أحمل حقيبتي وأغادر المدينة. لعله سيسرع بإنجاز مهمته قبل ان يطير الصيد من شباكه. استعذت بالله من شياطين الأرض والسماء، ووقفت انظر إلى الشارع وأرى جموع الناس الذين أيقظهم الصباح ودفع بهم خارج فنادقهم وبيوتهم، يستأنفون نشاطهم ويمضون في تنفيذ برامجهم، فأحس بالغبن لأنني حرمت من هذه الحرية

البسيطة التي يتمتع بها بقية الناس. اكتشفت انني مازلت احمل السكين معي، اخبئه في جيب سترتي، فليتني حقا اجد الشجاعة لغرسه في صدر هذا الرجل فور أن يأتي لمهاجمتي. لم أستطع ان اراه من موقعي امام الفندق، فذهبت أبحث عنه خلف الاعمدة والاقواس القريبة واطوف بعدد من الاكشاك التي تتناثر علي الارصفة المقابلة تبيع الصحف والورود والهدايا، دون ان اعثر عليه. لقد لاحقني طوال نهار الامس، حتى اوصلني إلي باب الفندق وبقى متكئا على هذا العمود الرخامي ينتظرني، فكيف أصدق انه تخلى عن مطاردتي. لعله اكتفى بمعرفة الفندق الذي اقيم فيه، وأرجأ الملاحقة إلى وقت آخر. او لعله استأجر غرفة في الفندق قبالة غرفتي، وانتظر حتى خرجت ليباشر تفتيشها ثم يلحق بي. رجعت مسرعا إلى الفندق، وصعدت ثانية إلى الغرفة، وعندما لم اجد له اثرا، ذهبت ابحث عن وكالة السفر، وانا اتلفت ورائي خشية ان يظهر فجأة. ولكن الرجل لا يظهر وقلبي لا يطمئن. قرأت لافتة تشير إلى وكالة السفر، فكدت أعبرها دون ان أعتني بالدخول اليها. لماذا استعجل مغادرة المدينة اذا كان الرجل حقا قد اختفى. رأيت من خلال الواجهة الزجاجية وجه فتاة تجلس في المكتب بمفردها، فأغراني ذلك باقتحام خلوتها. قدمت لها التذكرة مبديا رغبتي في حجز مقعد على اول طائرة إلي روما. قالت وهي تضرب على ازرار الحاسب الآلي:

ـ هل تجد فينيسيا مضجرة إلى هذا الحد.

لكنتها الايطالية تمنح الكلمات الانجليزية رنينا انثويا عذبا ومغريا، خاصة هذه الجملة الاستفزازية الجميلة التي تتهمني بأن لي قلبا حجريا لايقوى على استيعاب فيض الجمال الذي يشع من حجارة مدينتها. كيف اشرح لها ان قلبا حجريا آخر هو الذي اقتحم حياتي، وانزل بي سخطا ونكدا يرغماني على الرحيل. وقفت صامتا انتظر ان تخبرني بفارق الثمن الذي سأدفعه. انها تميل

إلى البـدانة قليـلا ، ولعلها ستكـون اكثـر بدانـة عنـدما تقـف ويظهر نصفهـا المختفي خلـف المكتب العالي ، ولكن وجههـا المستدير يفيـض نضارة وبهاء . قلت وانا املأ البصر من ملامح وجهها المتورد المضئ :

ـ خطأي انني جئت إلى فينيسيا بمفردي ، ولم اصطحب صديقتي معي .

ابتسمت دون ان ترفع عينيها عن ازرار الحاسب :

ـ سيكلفك هـذا التغيير مبلغا كبيرا . لو كنت مكانـك لأبقيت على الحجز كما هو .

كان لابـد ان أغامر باستئنـاف الحديث الحميمي ، وأصل إلى النتيجـة التي اريدها قبل ان يداهمنا زبون آخر تنشغل به عني . بالغت في وصف ما أصابني من ضجر ، وما أحسست به من غربة لم تفلح كل مظاهر الجمال في مدينتها من التخفيف منها ، لانني لا اجد احدا يشاركني الاستمتاع بهذا الجمال . قلت لها ان اكثر لحظـاتي تعاسة عنـدما اجـد نفسي اجلس في المقهى او المطعـم وحيدا واتناول وجبـة الافطار او الغداء او العشـاء دون انيس ، فهـو امر يتناقـض مع طبيعتي التي تنفر من الوحدة . وأعربـت لها عن رغبتي في البقاء اياما اخرى لو ضمنت وجود انسان يبادلني الحديث مـن حين لآخر . كنت قد حددت هدفي الذي يتركز في انتـزاع موعد للقائها . لم يكـن دافعي فقط انها فتاة بـالغة البهاء والعذوبـة . كان الـدافع الاكبر، هـو ذلك الـرجل الـذي يطاردني ، فهـو وان اختفي عني هذه اللحظة ، فلا أحد يضمـن انه لن يظهر في اية لحظة . ووجود انسان معـي ، امرأة كـان او رجلا ، سيمنحني قـدرا من الامـان ، ويتيح لي ان اواجه الـرجل متسلحـا بهذه العلاقة . أفصحـت لها عما اريد ، لكنهـا راوغت ومـاطلت ونصحتنـي بالانضمام إلى رحـلات داخـل المدينة تنظمهـا المكاتـب السياحية ، حيث سيتـاح لي التعرف برفاق الرحلة وتبـادل الحديث معهم ومع المرشديـن السياحيين . وكنت ارد عليهـا بأن طبيعتي الحرة تكـره الجداول التي

تحدد مواعيد الحضور والانصراف وأوقات النوم واليقظة والعلاقات الرسمية المرسومة بالمساطر، وانني لا ابحث سوى عن انسان اتآلف معه واتبادل واياه الحديث في المقهى لبعض الوقت وينتهي الامر. وبرغم انها لم تعدني بغير لقاء قصير اثناء فسحة الظهيرة في اليوم التالي، فان هذا الوعد كان كافيا لان يزرع في دمي شحنة من النشاط والحيوية. لم اعد انسانا وحيدا. ثمة امرأة، لها وجه مرسوم بأبهى الالوان، سألتقي بها غداً، وفي مقهى فلوريان الذي شهد قصصا عاطفية احتفى بها تاريخ الادب والفن. لحظة خاطفة من البهجة، أعادتني إلي جمال وعذوبة اللحظات الأولى للقائي بهذه المدينة التي احبها القلب. ولكن التفاتة صغيرة تكفلت بطرد كل مشاعر الفرح التي تدافعت مع موجات الهواء الربيعي إلى صدري. رأيت في البعيد، الرجل الذي يطاردني، قادما نحوي، وقد ارتدى هذه المرة قبعة تنكفئ فوق وجهه حتى غابت نصف ملامح الوجه. تشنجت اصابعي على مقبض السكين القابع في جيبي وانا أراه يندفع نحوي. ثم رأيت نفسي، في التفاتة مباغتة، امسك عنقه بيدي قبل ان يباغتني، وادفع باليد الاخري، السكين في صدره. دفعته بكل ما املك من غل وحقد وغضب، حتى غاص بين اضلعه، لينبثق دمه ملطخا ملابسه وملابسي. اغمضت عيني وفتحتها، وحركت رأسي بعصبية انفض هذا الكابوس الذي داهمني. رأيت الرجل يواصل سيره بمحاذاتي، وهو يلتفت باستغراب نحوي. لم يكن هو ذات الرجل. هل لابد ان اكون قاتلا او قتيلا. هل حقا اختفى من حياتي ليتركني اصارع شبحا لا وجود له الا في ذهني، واقوم بجريمة قتل وهمية تعويضا عن خيبتي في التصدي له اثناء المواجهة الحقيقية. ليتني لم اقع تحت اغواء الموظفة الحسناء، ودفعت الثمن الذي تريده، ورحلت لأضمن لنفسي النجاة من الهلاك. كيف لي ان اتحرر من هذه المخاوف، أو أصدق ان المطاردة قد انتهت. لعله كان يظنني ثريا من اثرياء النفط وما ان رأى فندقي الفقير حتى أدرك حقيقة امري وانصرف عني إلى

هدف آخر. أليـس هذا تفسيرا معقولا ؟ فلأتحرر إذن من سطـوة هذا الشبح ، ولأواصل شعائر حجي إلى فينيسيا . ها هو اعظم ما ابدعه الانسان مرسوم فوق الاقمشة ومنقوش فوق الحجارة والاخشـاب ، ولا يقتضي ان اذهب باحثا عنه ، لانه يعترضني اينما اتجهـت . لأقف ادن متبتلا خاشعا امام هـذا الباب الاثري لكنيسة القديسة هيلانه ، اتأمـل النقوش المحفورة فوق الخشب ، بما تحمله من رموز ودلالات ، ومـا تبعثه في النفس مـن رؤى ومشاعر. لأفعـل ذلك دون ان أنسـى حذري ، أو أخطـئ فامنـح فكري كلـه للنقوش والتصـاوير، اذ لعـل العصابة التي ينتمي اليها الرجل ، كلفت زميلا له ، يستخدم اسلوبا اكثر تنكرا ومراوغة لمطاردتي. نظرت إلى وجوه الناس الدين يحفل بهم الشارع ، بدا لي كأن هؤلاء الناس جميعا يـريدون بي شرا . وهاربا من مشاعـر الخوف ، وظلال ذلك الشبح ، مضيـت أضرب في أزقة وحـواري فينيسيا ، تائهـا لا أعرف لي هـدفا . هناك اكثر من مـائة وستين قناة لعلني عبرت كل قناطرهـا دون ان يفارقني هذا الاحساس بالوحشة ، الذي لايزيده ضجيج السائحين وغناء الملاحين الا كثافة وعمقا . احسست بالتعب ، فاخترت مقعدا في منطقة مشمسة ورميت عظامي فوقه . كنت قد اشتريت نشرة محلية بـاللغة الانجليرية ، بعد ان أثارت فضولي صورة تملأ الصفحة الاولي لزعيم سياسي من بلاد الشرق الاوسط . قرأت الخبر الذي يتصـل بالصـورة فإذا بـه عن زيـارة قام بها هـذا الرجـل إلي فينيسيا نهار الامس . واضافـت النشرة بان السلطات الامنية في المدينة اتخذت اجـراء وقائيا بهذه المناسبة ، ووضعت كـل الشخصيات المشبوهة القادمة مـن البلاد العربية تحت المراقبة الصارمة . ظننت ان هذه المعلومة التي تقدم تفسيرا لمطاردة الامس سوف تعيد إلى نفسي الصفـاء الذي تنشده ، ولكن لامر ما ، وجـدت ان حالة التبرم والانقباض لا تفارقني . لقد عشت نهارا وليلـة مع الاثارة والرعب بسبب تافه لا اهميـة له . وهأنا اعود وجهـا مجهولا في هذا الزحـام ، لا اعرف احدا ولا احد يعـرفني ، غير هـذه السلطات الامنيـة التي نظـرت في اوراق القادمين إلى

المدينة، ووجـدت ان اسمي يستحـق ان يكون اسما لشخصيـة مشبوهـة تهدد الامن، فيضعونها تحت المراقبة. ألم يكن بإمكان هذه السلطات ـ قلت لنفسي ـ ان تختار رقيبا اقل جلافة وصفاقة، ولا يحمل ملامح جامدة جمود الاموات. ما أقسى هذه الطريقة التي تعاملين بها عشاقك أيتها الجميلة فينيسيا، ولكن من كان قارئا للأدب مثلي، سوف لايستغرب هذا منك وقد رأى المصير الذي لاقاه عطيل على يديك.

ووفاء لهذا العشق القـديم الذي بدأ يتبخـر ويتلاشى، ذهبت ابحـث عن شئ يحرك الفتور الذي اصـاب مشاعري، خلف بوابات متـاحفها وقصورها، بدلا من الطواف بجدرانها الخارجية. دخلت قصر الادواج، وصعدت السلالم الاثريـة ذات الفخامة والبهاء، ومـرقت تحت الاقواس التي تنتمـي إلى عصور المحاربين الكبـار، وشاهـدت تاريـخ المدينة مـرسومـا على اللوحـات، هزائم وانتصارات، ومعارك مع البيزنطيين والعثمانيين والنمساويين والممالك الايطالية المجـاورة، ومشاركـة فـاعلة في الحروب الصليبيـة. وكـانت ذاكـرتي تهرب إلى مسرحيات المآسي ومشاهدها التي تقتبـس احداثا دارت في هذا القصر، فتوقظ في نفسي إحساسا بالفزع من هذه الغرف الـواسعة، والاسقف المهولة العالية، والجدران التي يغلفهـا غبار الزمان. ذهبـت إلى اكبر متاحف المدينـة، ورأيت تيجان الملوك وقلائد الذهب واليـاقوت والألماس، فانصرف ذهني يبحث عن مصير الرؤوس التـي كانت تعتمـر بها، والأعناق والصدور التـي كانت تـزهى بها. وقفت طـويلا امـام اللوحات التـي رسمها فنـانو عصر النهضـة بجلالها الكـلاسي، وتأملـت تلك العـوالم الروحيـة بشفـافيتها ومثـاليتها كما بـدت في الايقونات الملونة، وصور العـذراء، وهالات النور فوق رؤوس القديسين. ومع ذلك فإن الشعـور لا يفارقني، بان كـل ما أراه الآن سبق ان رأيته وعـرفته، ولم يعد يثير في نفسي اي إحساس بالدهشة او الانبهـار. كل هذه الابراج والقباب والتماثيل والتصـاوير، كل هذه الحجـارة والاعمدة والاقواس وابـواب الخشب

والحديد، التـي تحمل كثـافة التـاريخ، وثـراء الازمنة القـديمة، لم تعـد تعني بالنسبة لي شيئـا جديد أو مثيرا. عدت إلي البـاحات والقناطر وارصفـة الموانئ الصغيرة، ورأيت مظاهر الحياة المليئة بـالمرح، فبدا لي انني لا اري سوى المظهر الخادع البراق، الـذي يخفي محتـوى أكثر تعتيما. ان فينيسيـا لا تظهـر لزائرهـا الاماكـن التي تـدفن فيها مـوتاهـا ولا الملاجئ التي تضـم المعتوهين وضحـايا الامـراض العقلية مـن رجالها ونسـائها، ومعنـى ذلك ان لـديها اشياء اخـري تخفيها، لكي لا يري الزائر غير هذا الوجه العامر بالأصباغ. صارت عيناي لا تلتقطان الا مشاهـد المشردين من ضحايـا الشراب الذين يتكومـون في الاركان المعتمة، والاعشاب الميتة التي يدفع بها الماء فتصنع اكداس العفونة في نتوءات وشقوق الارصفة. وذاكرتي لا تستحضر الا الروايـات التي تتحدث عن مجرمي ولصوص وقراصنة فينيسيا، بل إن كازانوفـا نفسه، الذي باعته فينيسيا للعالم، باعتباره العاشق الاسطوري، لم يكن الا جـاسوسا رخيصا. حتى هذه الفتاة، التي تعري سـاقيها وصدرها وكتفيهـا، وتستعرض امام الناس سحـر انوثتها، من قال انها لا تحمل مـرضا جنسيا. أليست فينيسيا هي المدينـة التي يقصدها الاغنياء من ضحايا هذه الامراض لقضاء ايامهم الاخيرة.

كنـت اعرف انـني اقسـو على فينيسيـا، ولا أستعرض مـن دفترهـا الكثير الالوان، إلا صفحـاته السوداء، التي أضيـف اليها سوادا تفيض بـه روحي. انني بذلك أبادلها انتقاما بانتقـام، لكي اتحرر قليلا من عبء هذا الظلم الذي ألحقته بي.

عندما انتهى النهار وعدت إلى غرفتي، كنت في حالة من الإنهاك أسلمتني إلى نوم لم افق منه الا في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي. اغتسلت وتناولت افطاري على مهل، دون ان أجد رغبة تدفعنـي إلى معاودة السياحة في فينيسيا، وكأننـي نفضت يـدي من هـذه المدينة نهائيا. كـدت انسى مـوعدي مـع فتاة الوكـالة، بعد ان احتسبتها جـزءا من هذه المدينـة التي طرحتها مـن حسابي.

وبـدافع الليـاقة وحـدهـا ذهبت إلى مقهـى فلـوريان ، وإلى طـاولة في الفنـاء الخارجي ، حيـث جلست بـانتظارهـا . تحف بي رفرفـة اجنحة الحمائم وانغـام موسيقي فـاجنر، وتملأ الفضاء من حـولي ، فتجعلني مكتفيا بوحـدتي . رأيتها مقبلة ، فـوقفت لاستقبالها ، ولكـن هفهفة الثوب الـزمردي ، ونضارة الـوجه ، وعذوبـة الصوت الـذي ألقى التحية ، لم تستطـع إخفاء بدانـة الجسم بطيـاته الكثيرة عند الخاصرتين . طلبـت لها شايـا بالحليب مصحـوبا بقطـع الجاتوه ، احتفـالا بقدومهـا ، وتعويضـا لها عـن هذا الفتـور الـذي أحس بـه نحوهـا . وتبادلت معها كلمات التحية والمجاملة ، ثم لم اجد شيئا اقوله لها . لم تظفر مني بغير إجـابـات مقتضبـة على اسئلتهـا التـي تحاول مغـالبـة الصمـت ، حـول مشاهداتي في فينيسيا وانطباعي الاول عنهـا . وكان لابد لهذا الصمت ان ينتهي بانتهـاء اللقاء ذاتـه . ذهبت امـرأة الوكـالة لكـي تخفي بـدانة جسمهـا خلف المكتب ، وعـدت وجها مجهولا في زحام فينيسيـا ، لا أدري ماذا افعل بالـوقت الذي تبقـى معي ، ولا أعرف علـة لهذه التقلبات التي تطـرأ على عقلي وقلبي ، وتجعلني متبرما بالمكان الذي عشت عمرا أحلـم بزيارته ، ولا سبب نفوري من هذه المرأة ذات الوجه المضئ التي اشفقـت على غربتي فجاءت لمؤانستي . كل ما أريـده الآن ، هو ان اعـود إلى غرفتي وانـام نوما طـويلا لا أستيقـظ منه الا عندما يحين موعـد ذهابي إلى المطار . وسأكون سعيداً وانـا اغادر فينيسيا ، التي اعتبرتني شخصـا مشبوها يهدد أمنهـا ، والتي لـن أحمل من ذكريـاتها ، سوى ذكرى هذا الرجل ، ذي الملامح المحنطة ، الذي أرسلته ورائي ذات مساء .

تشارلــز وديــانــا

بـدأت علاقتـي الصامتـة، البعيدة، بـالأمير تشـارلز منـذ أن وضع دبلـة الخطوبة في يـد الليدي ديانا سبنسر. اختيـاره العبقري لهذه الفتاة بالـذات هو الذي أخـرجني مـن عزلتي، وأعـادني إلى قراءة الصحـف ومشاهـدة التلفاز، وجعلني اكرس اغلب وقتي للاهتمام بالامير تشارلز وخطيبته الرائعة. فثمة شئ مشترك بيني وبينـه اكتشفته نتيجة هذه الخطـوبة، وسأفصح عنـه دون ابطاء. سنوات عديدة قبل ميلاد الليدي ديانا، وقع في يدي كتاب يضم منتخبات من قصائد الحب، وعلى غلاف هذا الكتاب رسم لوجه فتاة، يطابق مطابقة كاملة وجه هذه الفتاة التي أخرجها الامير تشارلـز من عالمها المغمور، إلى عالم الشهرة والأضواء. كان رسما بسيطا بلا ألوان، ولا نمنمات زخـرفية، ولا تفاصيل تحيط بالوجه. مجرد خطوط سوداء فوق بياض الـورق، تظهر وجها تتألق فيه العينان تألقا مبهجا، وهما تنظران إلى البعيد، وتنطقان بمعاني البراءة الممزوجة بكبرياء ملكي.

وتضـافرت قصـائد الحب في الديـوان، مع صبـوات الشباب الأولى، مـع تخطيطـات ذلـك الـرسـام المجهول، لتصنـع لي حلما، صـار مـع الأيـام يكبر ويتنامـى، ويأخذ شكل امـرأة، تمنحها المخيلة صـوتا وعطرا ولونـا، وتمنحها حياة وحركـة ودفئا، وتغني صورتها بـالايحاءات والايقاعات والدوائر الانثـوية اللذيذة، فاذا بها تحتل كل مساحات القلب الفارغة، وإذا بي غارق في حبها، لا أرى في عوالم النوم واليقظة امرأة سواها.

هكذا وقعت منذ صباي، في شباك ذلك الرسم البسيط الساذج، الذي رسمه الفنان لوجه ديانا قبل ان تولد، والذي لم أستطع الفكاك منه بعد ذلك ابدا. فقد اصبحت حياتي منذ ذلك اليوم، رحلة بحث متواصل، عن فتاة تشبه ذلك الرسم.

التقيت بنساء كثيرات، وسعيت لإنشاء علاقات حب مع بعضهن، ولكن تلك العلاقات، كانت سرعان ما تصطدم بصورة المرأة المثال التي تشبه امرأة الصورة. ولم يكن اختياري لمهنة صحفي متجول، إلا لأن هذه المهنة تتيح لي فرصة البحث عنها في اماكن اخرى من العالم، بعد ان فشلت في العثور عليها بين نساء مدينتي. طفت بلاد الشرق والغرب، وتهيأ لي في مناسبات كثيرة انني رأيتها في زحام احدى الحفلات، او واقفة باحدى محطات القطار، او تقرأ كتابا تحت مسقط الضوء في نافذة بعيدة، فكنت أتحمل صنوف المتاعب من أجل ان اقترب منها، انتظرها في المحطة، او أترصد لها في مواجهة تلك النافذة، او أرتاد تلك المحافل العامة، حتى أراها عن قرب، واكتشف انها ليست هي، فأتركها وأعاود البحث في اماكن اخرى، وارصفة أخرى.

وأدركتني الكهولة على حين غفلة، فإذا بي مازلت عازبا، لا اجني من هذا البحث سوى حصاد الالم والخيبة، فتوقفت عن ملاحقة الشمس في دورانها من شرق العالم إلى غربه، ورجعت يائسا إلى داري، وقد صارت العزوبية اسلوب حياة، تآلفت معه، ورضيت به، ولم اعد قادرا علي تغييره، مدركا ان امرأة الحلم التي أشقيت نفسي بالبحث عنها، ستبقى على الدوام مقيمة في غرف الحلم والأسطورة.

وجاءت مفاجأة العمر، التي أشعلت جمر الإثارة في حياتي من جديد، عندما اشرق وجه ديانا فوق صفحات الجرائد وشاشات التلفاز، ليثبت لي ان لامرأة الحلم تجسيداً عبقريا في واقع الحياة، فها هي كما رأيتها منذ عقود اربعة

مضـت، فوق غـلاف كتاب شعـري. راقبتها وهـي بصحبة خطيبهـا، تمشي وتبتسم وتتكلم، فلم أر الا ما كنت أراه في مخيلتي على مدى اربعين عاما. لقد عشت كل هذه الاعـوام، بصحبة هذه الابتسامة، واحسست بمـذاقها اللذيذ في ريقي، ورأيت سحر هاتين العينين، بما فيهما من ألق ينتمي إلى النجوم، لا تزيده الرموش في حركتها السريعـة الا إبهارا للناظرين، وانسكب هذا الصوت العندليبي، رحيقا نديا في مهجتـي. إنها هي. الانف والفم والعينان، الشعر والعنق والاذنـان، الاصابع والذراعـان، الصدر والخصر والساقان، كـل هذا الضياء، وهذه الشفافية، وهـذا الحضور المخملي المليْ بالكبرياء، وهذه البراءة التي تنتمي لكائنات السماء، تماما، كما حملتها في ذاكرتي، وعشت مسكونا بها طوال سنوات عمري، بذات المقاييس التي رسمها رسام عبقري لتلائم قلبي.

نعم. لقد تأخـرت اربعين عاما عن الظهور. ولكنني لن اتـأسف لذلك. بـل أحمد اللـه انها ظهـرت أخيرا، لأعرف على وجـه اليقين ان حلمـي لم يكـن هلوسة وجنونا. وشكرا لهذا الأمير الوسيم، الذي اهتدى إليها، والذي شاءت الاقدار، ان يتفـق ذوقه مع ذوقي، وحسـه الجمالي مع حسي، واختياره مـع ما اختاره قلبـي. ولابد ان موقعـه كأمير، يحظى بحب النـاس وإقبال الدنيـا هو الذي جعله اكثر تـوفيقا مني في العثور على تلك الفتاة التـي بددت العمر كله بحثا عنها، دون أن اهتدي اليها. فله مني بالغ الامتنان والعرفان بالجميل.

هكذا بـدأت علاقتي بـالامير الذي اعتبرتـه شقيقا لروحـي، وصرت اتتبع أخباره، واقرأ كل شئ عنه حتي وانا في موطني البعيد عن موطنه، واتابع تطور العلاقة بينه وبين خطيبته، وجعلت من يوم زفافه العظيم يوم عيد لي، حرصت على حضوره في لنـدن، واكتريت غرفـة في فندق يحاذي القصر الملكـي لأكون قريبا من مركز الاحداث. وكانـت فرحتي تنقلني، إلى الشارع، اشارك الناس الرقص والغناء وتبادل الأنخاب ومراقبة مواكب العرس الملكي، ثم تعيدني إلى

الغرفة لأتابع الصورة التي تنقلها عدسات التصوير من كنيسة القديس بولس، للحظة الزفاف، ثم اخرج عائدا إلى الشارع وإلى الوقوف امام قصر باكينجهام، عندما علمت ان الامير والاميرة سيخرجان إلى شرفاته لتحية الجمهور. ووقفت مع الناس أنظر إلى الشرفة العالية وقد شملتني حالة من الانتشاء والذهول، وانا أرى الحلم الذي اصبح واقعا، والاميرة التي هبطت من قصر الاساطير، وبجوارها الامير في كامل الابهة الملكية، يلوحان بايديهما إلى الجمهور. صرت اشق الصفوف، وادفع الناس شمالا ويمينا، لأحتل موقعا متقدما أرى منه الصورة عن قرب. وقفت املأ البصر من هذا المشهد الذي امتزجت فيه الحقيقة بالخيال، ورأيت صورتي عندما كنت شابا في صورة الامير الآن، فتمنيت ان يأخذها الآن بين احضانه ويقبلها. سيكون ذلك شيئا لا سابقة له في تاريخ الاعراس الملكية، ولكنها رغبة سيطرت على كل جوارحي، ودفعت بي لأن اطلب من شقيق روحي، الامير تشارلز، هذا الطلب الغريب، وهو ان يقبلها الآن وفي هذه اللحظة من اجلي، لكي تكتمل بذلك سعادتي. ولذهولي الشديد، وجدت ان الامير، ودون تردد او إبطاء، يستجيب لطلبي، فيحيط بذراعه خصر الاميرة، ويحني وجهه فوق وجهها، لترفع إليه الاميرة ذلك الثغر الجميل، فيطبع فوقه قبلة، نقلتها عدسات المصورين إلى اركان الارض الأربعة. واحسست لحظتها بان سعادة الامير هي سعادتي، وان علاقتي به، نتيجة هذا التواصل الروحي بيننا، والذي شهد اعظم اختبار له هذه اللحظة، قد ختمت باختام المودة الصادقة التي جعلت منها علاقة قدر ومصير.

وعندما بدأت اتعرف على أفكاره وآرائه في القضايا العامة، اكتشفت تماثلا غريبا بين افكاره وافكاري، واكثر من ذلك فقد وجدت ان ما يقوله حول قضايا المعمار الحديث، والمحافظة على جمال الريف، وحديثه عن المتاحف والمكتبات، يعطي صوتا ومعنى، وشكلا ومضمونا، لكل الاحاسيس

الغامضة التي لم اكـن اعتني بفحصها ولم أمنحها نسقا متكامـلا الا من خلال احاديثه ، وكأنه يتكلم بالنيابة عنـي . كنت اسمعه وهو يتحدث بتلك البلاغة اللغوية ، وذلك الصوت العميق العامر بالصدق والحرارة ، فأحس بالفخر لهذا التماثل بيننـا . وكنت أحيـانا أهمس بتعليق يحمـل التشجيع ، قـائلا «احسنت القول يا تشارلز» او «هكذا يجب ان ترد عليهـم» . وكنت ذات مساء ارقب حفلا ينقـل مبـاشرة على الهواء ، وكــانــت صحـف ذلـك اليــوم قـد نشرت بعـض الانتقادات لتدخله في امـور تخص الدولة ، فوجدت نفسي غاضبـا ، اقول له ، وقبل ان يبدأ الحديث :

ـ ارجوك لاتخذلني ، ولا تخضع لابتزازهم . قل لهم بالحرف الواحد ، انهم اذا ارادوا لك ان تبقى عاطلا لا تفعل شيئا ، فانك تفضل ان ترحل نهائيا عن هذه البلاد .

ولم تكن مفـاجأة لي ، ان أرى الامير علي شاشـة التلفاز ، يتجه مـن فوره إلى المنصة ، ويعيد قول نفس الكلمات التي قلتها له . لم يدهشني دلك ، فقد صار هذا التواصل بيني وبينه مسألة لا تثير دهشتي ولا ذهولي .

وفي مكان القلب من هذه الانشطة التي يقوم بها الامير ، والتي تستحوذ علي اهتمامي ، كانــت علاقته بالاميرة ديانـا ، فكنت اتابع بمشـاعر الحب والفرح ، صفـاء العلاقـة الزوجيـة بينهما ، وما يحيـط بهما من محبـة الناس واهتمام الـرأي العام ، وأغبـط نفسي ، لانني اعيش في عصر الثـورة الإعلامية ، التـي سخرت وسائلهـا لرصـد حياتهما رصداً دقيقـا ودءوبا ، وأتاحـت لي ان اعرف كـل شئ عنهما ، وكأنني اعيش معهما صباح مساء . ولان الامراء الذين سيعتلون العرش قريبـا ، يحبون ان تزدهـي بيوتهم بأولياء العهـد ، فقد كنت سعيـدا لسعادتهما ، ونجـاح زواجهما ، الذي حبتـه الاقـدار السعيـدة ، بمجئ طفلين علي التـوالي يكملان صورة العائلة الملكية الهانئة .

ومن خلال المتابعة المستمـرة لحياة الامير والاميرة، بدأت ألحظ شيئا يتصل بـالأميرة ديانـا، اثار قلقـي. ان تلك الصبيـة، العامـرة بالنشـاط والحيويـة، الملائكية الملامح، التي تضع عينيها في الارض حياء وخجلا، قد بدأت تنضج ويطرأ على صورتها تغيير طفيف جاء نتيجة التقدم في العمر والتجربة. صارت تلك الصبيـة، اكثر جرأة وهـي تخاطب الغرباء، ورمـوش عينيها اكثر ثبـاتا، ونظرتها التي تسبح في الفضـاء اللانهائي، اكثر تحديدا ومعرفة لما تـريد. كنت اعرف جوانب القصور في نظرتي، والتي مبعثها ان الصورة التي في ذهني لامرأة الحلم صورة ثابتة لا تتغير، أشبه بصورة نحتفـظ بها في ألبوم الذكريات لإنسان عـزيز. ولهذا فقـد صرت التقـط أي تغيير يطـرأ على الصورة بشـئ مـن الحذر والخوف، محاولا ان أصل إلى درجة من المصالحة بين واقع الحياة، وبين الصورة المحفورة على جدران الذاكرة. كيف يمكن ان نحافظ على الحبيبة التي اختارها القلب، كما هـي في نضارتها وحيائها، وبـراءة الفراديس التي تسكـن عينيها، برغم لعبة الزمن؟.

لقد أقلقني مـا رأيت، وكان أخشى مـا أخشاه ان ينتقل هذا القلـق الذي أحس به إلى الامير تشارلـز. انني لا اريد له ذلك. اريده ان يكـون اكثر عافية مني، وأكثر وعيا بخطورة هذه الافكار التي جاءت نتيجة تثبيت ذهني يعكس نفسية مغدورة، اصابها الاذى من حركة الـزمن ودورانه الدائم السريع. ولكن ماذا أفعل لخط التواصل الروحـي المفتوح بيني وبينه. يجب ان احاول السيطرة على مشاعري مراعـاة لخاطره، ولكي لا أظلم حبا نمى وتطـور تحت رعايتي. صرت وانا اقـرأ اخبارا عن طـردها للعاملين بقصرهـا، او أسمع تعليقا قـاسيا تنسبه الصحف اليها. اقول إن ذلك لا يمكن ان يحدث لانه لا يتفق مع صفاء وبراءة الانثـى التي عرفتهـا من قبل ان تولـد، بل ولماذا لا اقول، لا يتفـق مع السذاجة الجميلة، التي تميزت بها امرأة احلامي. وكنت اقول وانا أرى وجهها المستديـر يفقد شيئـا من استدارتـه ليكتسب طولا لم يكـن فيه، إن ذلـك جاء

بسبب الحمل، ثـم ينتهـي الحمل فـأرى ان الاستدارة التـي تنتمـي لطفوليـة ملامحها قد انتهت لانها الآن اصبحت ديانـا الزوجة، وديانا الام، وديانا الاميرة ذات المسئوليات العامة.

وبـدأت عاطفتـي نحوهـا، ولاول مرة منـذ ان رأيت صـورتها فوق كتـاب المنتخبات الشعرية، تعرف شيئا من الفتور، ان لم اقل البرود.

كنت حزينا إلى حد ما. فهذه المرأة تمثـل شيئا تمحورت حوله حياتي كلها. شيئا دفعـت ثمنه بـاهظا، ودفعته راضيـا سعيدا، وانـا أرى نفسي، ودون كل رفاقي، الذين ينعمون بـالاسرة والاولاد والدفء العائلي، أعيش وحيدا، لكي لا أخذل فتاة ظل رسمها موشوما بالجمر فـوق الذاكرة، ولذلك فانا لا اريدها ان تخذلني، ولا للمرأة التي استعارت ملامحهـا ان تنمو وتتطور باتجاه لا يريده قلبي.

وتأكـدت كل ظنوني عنـدما صرت ألمح في بعـض المشاهد المنقـولة لها على الشاشـة، واقرأ في التقاريـر الصحفية، إشـارات إلى لحظات غضبها، وتـوتر أعصابها، وحدة مزاجها، وكلها خصال لم اضع شيئا منها في روح وسلوك المرأة التي استقطبت عواطفي على مدى العمر.

كانت هـذه الحالة العصبية لشخصيتها الجديـدة، والتي تتناقض تنـاقضا فاجعا مع شخصيتها الأولى، اشارة حزينة ومؤسفة لانهيار حلمي كله.

ولكن ماذا عن الـرجل الذي رأى هذه المرأة بعيني، واختارهـا بقلبي، هل تراه قد تواصل مع المحنة التي أعيشها حتى صارت محنته الشخصية، واكتشف كما اكتشفت، ان هذه المرأة، لم تعد هي ذات المرأة التي تزوجها.

وكـان طبيعيا بعـد ذلك، ان اكـون اول مـن يصدق انبـاء الخلافات التـي نشأت بينهما، والتـي تبارت صحـف الاثارة في نقلها. كـانت صحـف أخرى

تكـذبها ، وكـان الامير والاميرة ينفيـانها ، ولكنني كنـت على يقين كـامـل مـن حدوثها ، لا يـراودني ادنى شك في ان ما تـوقعته قد حدث ، ومـا أحسست به من ألم ومرارة ، قد نقلته حمائم الروح ، ووضعته بكامله في صدر الامير.

كنت مسئـولا مسئولية كـاملة عما حـدث . أعرف يقينا ان هـذا الخلاف ما كان له ان يكون ، وما كان للامير ان يتحول عـن حبه لزوجته ، لو لم اكن مسرفا في عاطفتي ، سجين حالة التثبيت النفسي ، التي بالغت في تصوير هذا التغيير الـذي طـرأ علي طبـاع وسلـوك الاميرة . انني الآن اهـدم حيـاة زوجيـة لا تهم صـاحبيها الاثنين فقـط ، وإنما تهم مـلايين النـاس ، رجالا ونسـاء ، تعلقـت قلوبهم بهما ، وجعلوهما مثـالا يحتذونه في الحياة . وكنت وانـا ألوم نفسي ، أقول لها ، بأنني لو تنازلت قليلا عن تصـوراتي المسبقة ، وحاولت ان اتواءم مع حركة الزمن ، وسعيـت لان استجيب لقوانين التغير والتطور ، لـوصلت إلى حل لهذه المشكلة . إذ ما ذنب الأميرة ديانا إذا كانـت بشرا كسائر الناس ، يطرأ عليها ما يطرأ عليهـم من تغير وتحول وتقدم في العمر . انها مـاتزال بالغة الجمال ، يـافعة الروح والجسد ، فلماذا احتفـظ لها فقط بصورة ذلك الغـلاف ، وأرفض ان أرى الألوان الجديدة التي اضفت بهاء على بهاء الصورة . وكنت على يقين بان محاولة كهذه لو نجحت ، لأنقذت هذا الزواج من المصير الحزين الذي يتجه اليه .

قضيـت ايـامـا كثيرة بعـد ذلـك ، لا أفعـل شيئـا سـوي قـراءة التقـاريـر الصحفية ، وتقليـب الصور التـي نشرت حديثا لـلاميرة ، ومشاهـدة الاشرطة المرئية التي تنقل نشاطها ورحـلاتها ، لاقترب اقترابا حميما من صورتها الجديدة ، وأسعى بجماع عقلي وقلبي لفهمها واستيعابها ، بما في ذلـك مزاجها العصبي ، واستقلال شخصيتهـا وجرأة نظراتها والتفاتـاتها ، وأسلوب وقوفها وجلـوسها ، وكنـت اظنني في لحظات كثيرة قـد حققـت تـواصـلا وتفـاعلا مـع صـورتها الجديـدة ، وان كـل جوارحـي صـارت على استعـداد لقبـولها والتعامـل معهـا بـاعتبارهـا امـرأة الحلم وقـد ارتـدت ألـوانها الزاهيـة . ولكـن ماذا أفعـل لهذه الصحـف الفضائحيـة التي لا تعرف أزمتـي ، ولا تحاول مسـاعدتي ، وتنقـل

معلومات مشوشة تأتي كأنها السكاكين تمزق الصورة القديمة والحديثة للاميرة، إلى حد الادعاء بانها قامت بمحاولة انتحار ذات مرة، مع إشارات خبيثة تقول بان هذه التحولات لم تكن شيئا طارئا عليها، وانما هي جزء أصيل من شخصيتها، ظل في حالة كمون، ولم يظهر الا بعد ان استوفت المرأة شروط النضج والاكتمال.

أرفض ان اصدقهم، لان معنى ذلك انني اتخلى عن حلمي، وأمزق أسطورتي بيدي. اتركهم وشأنهم، وامضي عائدا إلى مراجعي الاصلية. إلى الاميرة ديانا كما تظهر امامي على الشاشة لأعرف منها الحقيقة. لكن بصيرتي ايضا تخذلني، وتمتنع عن رؤية الاميرة بعيدا عن مناخ الاشاعات والاقاويل التي تطاردها، فأراها تحمل الشئ ونقيضه، البساطة والتعقيد، العنف والبراءة، انجما يعفرها التراب، وشمسا يطاردها الظلام، وزهرة ملكية تغمرها عواصف الثلج، وتغمر معها شعلة الحب التي اضاءت لي عتمة القلب. وأرى نفسي متأزما، مريضا، غير قادر على فهم واستيعاب ما حدث. ان هناك شيئا في الدنيا، شيئا قاسيا وبذيئا، يمنع طائر السعادة من ان يغرد على الدوام، ويمنع زهرة الحب من ان ترسل اريجها على مدى الدهر.

وفي لحظة توتر ويأس، رميت الصحف والاشرطة، واقفلت التلفاز، وقررت ان انفض يدي من الامر كله.

كنت اعرف انني بهذا العمل قد وصلت نهاية الشوط، وانني مرغما احكم على هذه العلاقة بالمصير الفاجع الذي هو الطلاق. مدركا أنني سأعيش ما تبقى من عمري احمل آثامي معي، لأنني فشلت في انقاذ هذا الحب من الدمار.

فمعذرة أيها الصديق تشارلز

ومعذرة أيتها الأميرة الجميلة، التي ماتزال صورتها القديمة، مرسومة فوق صحائف القلب.

صفحة فارغة

موعد تحت برج الساعة

مضت نصف ساعة وأنا أنتظرها. أسند ظهري إلى جدار برج الساعة، وأرقب مداخل الميدان، أعلق بصري بأطياف النساء القادمات إليه، بحثا عنها، وأتسلى أحيانا بإحصاء عدد النساء والرجال الذين تواعدوا على اللقاء تحت البرج. الذين يأتون فلا يدوم انتظارهم سوى دقيقتين أو ثلاث. يلتقون بعدها بأحبابهم، ويذهبون ضاحكين متعانقين، وأنا باق، أستقبلهم وأودعهم، كما يفعل هذا البرج، دون أن أدري لماذا أواصل انتظارا عقيما لا معنى له، وأبني أبراجا من الأحلام، نتيجة موعد أعرف منذ البداية أنه لم يكن إلا عبثا. امرأة ألتقي بها علي ناصية الطريق، فيبهرني جمال عينيها، وأستوقفها لأتسول منها موعدا، فتهز رأسها بالموافقة وتمضي. امرأة لا أعرف اسمها، ولا تعرف اسمي، ولم تمكث معي وقتا يكفي لأن تتذكر ملامح وجهي، كيف أوهم نفسي بأن لي موعدا معها. وأقف كل هذه المدة، أنتظر أن تأتي راكضة نحوي، تغمرني بعبق أنوثتها، وتمنحني نصيبا من عطرها، وتفسح لي مكانا في دائرة الضوء التي يصنعها جمالها، وتترك مالديها من ارتباطات وعلاقات لتصطفيني ضيفا على موائد حبها. إن هذا لا يحدث إلا في الخراريف.

يجب أن أترك هذا الانتظار الذي لا معنى له ــ قلت في نفسي ــ وأمضي للاعتناء بشئوني الأخرى. ولكن أية شئون تنتظرني، في مدينة أجنبية جئتها منذ شهر مضى ولا أعرف من أهلها إلا أرملة عجوز هي مسز «كين» التي أسكن في بيتها، برفقة ابنها وكلبها. ثم عدد من الطلاب الأجانب الذين يدرسون

اللغة الإنجليزية مثلي ، والذين لا ألتقي بهم خارج أوقات الدراسة إلا بمواعيد مسبقة . لقد تركت هذا اليوم مفتوحا ، دون ارتباط مع أحد من زملاء المدرسة ، لأنني أوهمت نفسي بأنني أملك موعدا سوف يملأ بالحب نهاري وليلي .

يستوي الآن أن أبقى هنا ، أو أذهب لأتسكع دون هدف فوق أرصفة الشوارع . ربما يكون البقاء هنا أكثر تسلية ، فقلب الميدان أكثر أهمية من أطرافه وشوارعه الخلفية ، ومراقبة العشاق الذين يلتقون تحت هذه الساعة ، لايخلو هو أيضا من متعة ثم لماذا أتخلى عن موعد لم احصل عليه الا بالعناء والمُكابدة . مهما كان موعدا كاذبا زائفا ، فهو موعد مع امرأة جميلة ، اتحرق شوقا لأن اضع ساعدي حول خصرها ، واغسل وجهي بجدائل شعرها ، واعبر ليل المدينة وسط قارب يتهادى فوق أمواج حبها . ما ضرّ أن اعاني قليلا من اجلها وأعرف الشوق ، وأذوق الصبابة ، متمثلا ما يقوله الشعر العربي عن الشوق الذي لا يعرفه إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها ، او أهل الغناء الشعبي عندما يقولون ان الحب من غير امل ، اسمى معاني الغرام . لماذا أترك هذا السمو ، وأتنازل عن نصيبي من الصبابة ، واخذل شعراء الحب . لقد قضيت شهرا كاملا ، ارتاد الحانات والمنتديات ، بحثا عن امرأة اواعدها ، فلم أفز إلا بهذا الوعد من هذه المرأة . سألت نساء كثيرات ، ولكنني سألتهن بأسلوب لايتيح لهن فرصة للتعاطف معي او الاستجابة لطلبي . ومتلعثما ، مرتبكا ، متردد الخطى ، اقترب منهن ، واقول نصف الجملة ، ثم أبلع ريقي ، واعالج جفاف حلقي ، وأمسح عرقا تصبب فوق جبيني ، واقول نصف الجملة الثاني ، وقبل ان انتهي من المقدمات ، تكون المرأة قد انصرفت عني ، وهي ترمقني بنظرة استغراب . كنت اريد ان اصرخ فيهن ، بأنني لست مريضا او مخبولا ، وانني احمل في قلبي مخزونا من الحب تراكم لمدة ثلاثين عاما ، ما جئت هنا إلا لكي أبذله عطاء سمحا كريما ، لأول امرأة تمنحني موعدا . ولكن من اين لهؤلاء النسوة ان يعرفن ، انني جئت من بيئة صحراوية ، جعلت رسالتها في

الحياة هـي الفصل بين النساء والـرجال . وانني لم التق ، طوال حيـاتي ، بالمرأة خـارج إطار العـائلة إلا إذا كـانت طيفـا على الشاشـة ، أو صورة على أغلفـة المجلات .

ولا أدري كيف صبرت هذه المرأة على حديثي ، وكيف هزت رأسها بالموافقة دون أن تفزعها طريقتـي في الكلام . رأيتها تقف امام نافـذة متجر يبيع ألعاب الأطفال . كـان هناك قرد يضرب الطبـل ، وراقصة اسبانيـة ، ترفع طـرف ثوبها وتعري نصـف ساقها ، وتدور حـول نفسها ، فوق صندوق يعـزف الموسيقى . وقطار كثير الألوان ، خاليـا من الركاب ، يدور فوق القضبـان دون محطة يقف عندها . وكانت هي تتابع هذا العرض وقد غمر وجهها فرح طفولي .

استوقفنـي منظرها ، وحيـدة أمام الـدكان ، وأعجبني جمال وجههـا الذي أضفى عليه المرح مسحـة من الألفة والحنان . فـوقفت بجوارها أشـاركها متعة المشاهدة راجيـا أن اجد الشجاعة لابـدأ الحديث معها . اقتضاني الامـر جهدا هائلا حتى استطعت ان افتح فمي بالكلام ، وعنـدما تكلمت لم اجد ما اقوله سوى ان اسألها عن الساعة . عدت لاستخدام تلك الحيلة الساذجة المستهلكة التي لم يعد أحد يصدقها . ابتسمـت المرأة ، وهي تشير إلى ساعتي التي نسيت أن اخفيها تحت كم قميصي ، وتسألني لماذا لا أستشير هذه الساعة بدلا منها . اعترفت لها بقلة حيلتي ، وعجزي عن اختراع ذريعة اخرى تتيح لي ان اكلمها ، لان كل ما اردته هـو أن أمد خيطا من الود بيني وبينهـا . وسألتها دون إبطاء ، وقبل أن تبدي استغرابها لهذا الغريب الذي يحمـل في يده انوال الود يرميها فوق الناس ، بأنني سأنتظرها غدا تحت بـرج الساعة ، عند الساعة الخامسة . هزت رأسها بالموافقة ، ومضت دون ان تلتفت وراءها .

كيف إذن اتـرك موعـدا انتزعتـه انتزاعا بـالكد ومغـالبة الحرج والقفـز فوق أسـلاك شائكـة زرعتهـا في روحـي تعاليـم الصحـراء . كيـف اتخلى عن هـذا

المهرجـان الخطابي الاحتفـالي الذي اعـددته لاستقبـالها ورصّعته بكـل ماوعتـه الذاكرة من أشعار المحبين واقوالهم .

ثم مـاذا عن ذلك الفيض الغـامر، من العـواطف المحبوسة خلـف اضلع الصدر والـذي تلقى الإشـارة بأن أيـام حبسه قـد انتهت ، ولايمكـن ان يبقى ساكنا كما كان .

سـأواصل الانتظـار. وإذا لم تـأت اليوم ، فسـأغـالـط نفسي ، واقول بـان موعدي معها لم يكن اليوم وانما غدا .

لم اترك شيئـا خلفي عندمـا جئت إلى هـذه البلاد ، سوى الفـراغ وصحراء المدن والعلاقـات ، ولا شئ امـامي سوى البحـث عن حـب يملأ فـراغ هذه اللحظات التي أعيشها في مدينة لاتعرفني ولا اعرفها .

سـوف أبحث عـن هـذا الحب حتى ألقـاه . سوف ادخـل زحـام المقاهـي والحانات وأقـف على أرصفة المحطات ، وأطـوف المتاجـر، اتسول موعـدا من البائعات ، واقف في الطوابير الطويلـة تحت المطر، افتش عن امرأة تحبني ، بين رواد المسارح ودور العرض . سوف أهمس لكل واحدة ألتقـي بها . بأن موعدنا غدا ، تحت برج الساعة ، ما بين الخامسة والعاشرة . سأمنحها فسحة كبيرة من الوقت ، لكـي تحدد الساعة التي تختارهـا ، وستجدني واقفا هنا بـانتظارها ، لا يفارقني الامل ، بأنه ذات مساء ، سوف اسمـع دقات مرحة ، تصدر عن هذه الساعة ، وتعلـن عن مجئ المرأة التي تطفئ عطش القلب . قـد لا تأتي في اليوم الأول ، او الثاني ، او العاشر، ولكنها ستأتي في اليوم العشرين ، او الثلاثين ، او الستين ، او المائة . حتما ستـأتي ، لتجـدني تحت هـذا البرج ، وصحبـة هـذه الساعة ، أشرع ابواب قلبي لاحتضانها .

دارت عقارب ساعة البرج دورة كاملة ، وانطلقـت دقاتها تعلن السادسة . مضت الآن سـاعة كـاملة على الموعـد الذي حـددناه . وانـا صامـد ، لا أبرح

مكاني ، ولن أبرحه ، مهما واصلت هذه الساعة إطلاق دقاتها الموحشة الكئيبة . لم يعـد هناك الآن ، أي احتمال لمجيئهـا ، وسحـب الضيـق التي أطبقـت على صدري ، تنشر الآن ظلا كئيبا فوق هذه الابنية والقباب التي حولي ، فأراها وقد غـادرتها البهجة ، التـي غادرت روحـي وقلبي . وأرى نفسي وحيـدا ، تائهـا ، وسط حدائق الحب ، وبين هؤلاء العشاق الذين يأتون ويذهبون ، وما أكثرهم . لا أدري إن كنت قـد أحصيتهم كلهم ، لعلهـم مائة او اكثر ، جـاءوا وذهبوا ، فانـا اغفل احيانا عـن اداء هذه المهمة التي صـارت وسيلتي الوحيدة لمحـاربة الضجر .

كنت قـد بدأت التفكير في لعبة جديـدة ، وهي أن اجرب حظي مـع هؤلاء النسوة الـلاتي يأتين للانتظـار ، ولكن قبـل أن أعثر على جملة أقـولها ، اجد ان الرجـل الذي واعدهـا قد وصل ، ليرشـق ذراعه في ذراعهـا ، ويأخذهـا بعيدا عني .

لا بأس من محاولة أخرى .

وهاهي صبية عفيـة ، عامرة بالوعود الجميلة ، تـأتي بمفردها ، وتقف تحت البرج ، تنظر في ساعتهـا ، لان القلق يساورها ، خـوفا من ان يتأخـر صاحبها سأبتهل إلى الله ان يصنع له عائقـا يمنعه من المجئ ، لأقدم لها نفسي ، كبديل لهذا الـرجل الخائن الـذي تخلى عنهـا . ولكن اللـه لا يـأبه لـدعـاء الحاقديـن الموتـورين مـن أمثالي ، لانـه ما ان أكملـت دعائي ، حتـى جاءهـا صاحبهـا راكضا ، يعانقها ويعاتبها لانها وصلت قبله ، وحرمته من متعة انتظارها .

ها هو يـري الانتظار شيئا ممتعا . ماذا اقـول انا إذن . يجب ان أحسد نفسي لأن انتظـاري قـارب الساعتين . بـل هما سـاعتـان بـالضبط . كما تقـول هـذه السـاعة ، التـي أبت إلا ان تنـاكفني ، وتطلـق دقاتها اللعينـة التي احـس بها كـالطعنـات في صدري . انها الآن السـابعـة . فهـل سـأنتظـر اكثر مـن هـذا

الانتظار؟ ولكـن من قال انـي أنتظر. انني لم اعد انتظـر احدا. انا هنـا اتفرج واتعلم واشاهد صورا من الحياة لاعهد لي بها من قبل. ها هي امرأة تعانق امرأة اخرى عناق العشـاق. ورجل يضع فوق وجهه مكياج النسـاء يلتقي بمثيله. سأكـذب على نفسي اذا لم اعترف بيأسي وضجري. لقـد جئت إلى هنـا محمولا فوق أمـواج الفرح، سعيـدا لأنني أملـك موعـدا مع امـرأة تتألـق كمصابيـح الأعراس، وتصنع أعراسا في قلبي. كنت اعرف عندما فارقتها بالامس، ان ما حدث بيننا لم يكن مـوعدا. وعدت إلى بيتي وقد قررت أن انسـى تلك الإشارة التي أمنـت بها على كلامي، والتـي لم تكن إلا أسلوبـاً لبقا تتخلص بـه مني. ولكن ما حدث بعد ذلك هو الذي اكد لي جدية الموعد. وأنبت في ذهني يقينا جازما بـأنها قادمه للقائي تحت هـذا البرج. فقد رأيتها تظهر لي في احـلامي، بقامتها السامقة وعينيها المليئتين بـالنزق الطفولي، ورأيت نفسي اتنقل معها في سياحات عبر الفصول، أضـع يدي في يدها، وأركض معها بمـلابس البحر، فوق شاطئ مهجور، واقطف لها وردا في حـديقة القصر وهي تخطر بجواري في ثياب الاميرات، وانتقـل معها إلى غرفـة واسعة، عـارية الجدران، خاليـة من الاثـاث، سوى قطعـة فراء افترشنـاها، ومـوقـد نار يـدفئ لنا الغـرفة ويضـئ العتمة، وسط هدير العاصفة والعزف العنيف لأمطار الشتاء خارج الغرفة.

وصحوت مـن نومـي، وكأن مـا حدث معـي في الحلم، لم يكـن إلا واقعا عشتـه معها، أتـاح لي أن أعـرفها وتعـرفنـي، وربط بين مصيرهـا ومصيري. وجئت إلى هذا الميدان، واثقا من أن هذه المرأة، لـن يكون شأنها شأن اية امرأة طارئة عارضة، ألتقي بها، فتمنحني مـوعدا كاذبا وتمضي. إن هذه المرأة، هي حصتي، التي طال انتظاري لها، من نساء العالم.

تناهت إلى سمعـي دقات الساعة مـرة اخرى. هل هي حقـا الثامنة الآن. ولكن متى كانت هذه الدقات تعني لي شيئا. لقد فقدت كل إحساس بالزمن. ورغم ان الانتظـار جديـر بأن يطيـل الوقـت، إلا ان حالتـي لاتشبه حـالات

الانتظار الاخرى . إذ ليس هناك انتظار بلا امل . فالانتظار هو الامل . وانا هنا لا أربط الانتظار الا باليأس . اجعل الانتظار يأسا . وهذه هي الإضافة الصغيرة التي أضيفها اليوم للتجربة الانسانية لتدق الساعة الثامنة ، او التاسعة ، او العاشرة . فسأظل اطفو فوق الزمن ولا أعيره انتباها .

سأقضي سهرتي هذه الليلة هنا ، لأنه لا مكان آخر ، يعدني بمتعة اكبر ، يمكن أن أذهب اليه .

وفجأة ، ومن حيث لا أدري ولا أحتسب ، ولا أجد له تبريرا او تفسيرا ، سوى ان كائنا ملائكيا حنونا ، يحب البشر الذين يقفون تحت الأبراج ، كان يراقبني وأشفق على هواني وضعفي ، فقرر ان يبدل كآبتي فرحا . فجأة اكتشفت ، وانا ارفع راسي ، في اتجاه امرأة تدخل الميدان ، بأن هذه المرأة ليست إلا تلك الأنثى الباهرة التي ضربت لي موعدا . كان شعرها الكستنائي قد تهدل أمامها ، وغطى نصف وجهها فمدت يدها ترفعه عن عينيها النجلاوين ، وقد وقفت تتفحص بهما جمع الواقفين تحت البرج ، تبحث عني . قفزت نحوها وأنا لا أكاد أصدق نفسي ، ووضعت يدي في يدها قائلا بأنفاس لاهثة .

ـ هأنت تجيئين أخيرا ، فشكرا للسماء .

قالت وهي تنظر في ساعتها :

ـ أرجو ان أكون قد جئت في موعدي .

نعم ، نعم ، قلت لها في خاطري . ان كل المواعيد باطلة ، وكل الاوقات اوقات عاطلة ضائعة ، ماعدا الوقت الذي تجيئين فيه ، والموعد الذي تختارينه لحضورك المبهر الجميل .

كدت ارفعها بين ذراعي ، وأرقص بها رقصا جنونيا وسط هذا الميدان ، تعبيرا عن عواصف الفرح التي تضرب قلبي .

كان شيئا أبعد من أي مبرر عقلي، أن تأتي بعد مضي ثلاث ساعات على موعدها، ثم تلقاني واقفا انتظرها .

لقد تحققت المعجزة التي كنت أترقبها، وجاءت المرأة التي رأيتها في أحلامي. جاءت في الموعد الذي سمعتني أحدده لها، لأن ما سمعته هو الثامنة لا الخامسة. لعله ضجيج الألعاب ـ قلت لها ـ او لغتي الانجليزية التي لم تصل مرحلة الاتقان، او اسلوبي المرتبك في الكلام هو الذي احدث هذا التحريف. لقد كان حدسي صادقا عندما أرغمني على الانتظار كل هذه المدة. كان يعرف انها قادمة، ويعرف ايضا إلى اي مدى ستكون حياتي خاوية مضجرة، بدونها .

هكذا بدأت علاقتي بأول امرأة اواعدها في حياتي. هذا الموعد الذي تأخر كثيرا عن موعده، لانني انتظرته منذ أيام الصبا، ولم يتحقق الا وانا ابلغ الثلاثين من عمري .

اكتشفت بعد ان عرفتها، وعشت لحظات ادفئ جسدي بجمر أنوثتها، وأريح رأسي فوق وسادة حبها، انني لم استطع ان اتخلى عن عادتي، في تسول المواعيد من كل امرأة أصادفها. أترك صاحبتي هذه، وأذهب إلى برج الساعة كل مساء، أرقب مداخل الميدان بحثا عن طيف امرأة جديدة ضربت لي موعدا. أدركت ان جوعي للحب، صار جوعا أبديا، لن يجد له إشباعا مدى العمر. لقد ادمنت الانتظار تحت البرج، وكأنني اعوض بهذا الانتظار، كل السنوات التي عشتها، محروما من هذه المواعيد. أقف وحيدا، أعاني واتعذب، واراقب ظلي وهو يمتد ويزداد طولا بمحاذاة ظل البرج، حتى تغمره ظلمة الليل، وأتسلى بإحصاء عدد العشاق الذين يأتون ويذهبون، أنتظر أن يأتي دوري، مع امرأة جديدة، تهدل الشعر الذهبي فوق عينيها، فرفعته تبحث عني، لأركض نحوها قائلا :

ـ شكرا للسماء، هأنت تجيئين أخيرا .

من يخاف أجاثا كريستي

اخترت مكانا جيد الإضاءة، في عمق الصالة، وجلست أقرأ قصة بوليسية مترجمة لأجاثا كريستي، أعبر بها الوقت الضائع، وألهث مع كلماتها ألاحق الجرائم التي يرتكبها مجرم مجهول، وأتحرق فضولا لمعرفة الفاعل. دون أن أنتبه إلى الرجل الذي جاء وجلس بجواري على ذات الأريكة، برغم المقاعد الشاغرة الكثيرة التي تملأ صالة الفندق. فاجأني وهو يحني رأسه قريبا مني، يتأمل سطور الكتاب الذي أقرأه. رفعت رأسي أنظر إليه باستغراب، فابتسم دون إحساس بالحرج، ووضع عينيه في الكتاب وهو يسألني بلغة إنجليزية:

ـ تبدو لغة غريبة. هل هل السنسكريتية؟

ـ إنها العربية.

قلت ذلك بإهمال، ودون رغبة في مواصلة الحديث، أو اهتمام بخطوط الدهشة التي ارتسمت فوق جبينه. دسست وجهي في الكتاب أبحث عن السطر الذي توقفت عنده، بأمل أن يكون الرجل قد أرضى فضوله وقرر أن يتركني مع كتابي. أحسست بأنفاسه قريبة مني وكتفه يزاحم كتفي، وقد أحنى رأسه يتأمل الكتاب من جديد. وفي غيظ أقفلت صفحات الكتاب ونظرت نحوه باستنكار أسأله دون كلام أن ينصرف عني، ولكن الرجل وضع على وجهه تلك الابتسامة التي لا معنى لها، قبل أن يقول:

ـ إذن فأنت عربي.

لا حول ولا قوة إلا بالله . إنه لايـريد أن يعتقني . وعالم القصة الملئ بجرائم القتل يجعلني أكثر حـذرا ، ويجعل مزاجي أكثر حدة في مـواجهة المتطفلين من أمثاله ، ولم يبق أمامي إلا أن أترك له هذه الصالة ، وأبحث عن مكان آخر .

ـ نعم أنني عربي . وأنت؟

لا أدري لماذا تورطـت في إبداء هذا السـؤال الذي يفتح بـابا للحديـث لن أستطيع إغلاقه . ربما لأنني أردت أن أعـرف إلى أي جنسية ينتمي هذا الحيوان الفضولي . ولماذا اصطفاني أنـا بالذات لكي أكون أنيسه وجليسـه هذه الليلة . قال ضاحكا :

ـ أنني خلاسي .

اكتفيت بهذه الكلمة التي لا تعني شيئا سوي أنه إنسان منبت . لا أصل له ولا جذور . فشكلـه فعلا لا يوحـي بأن لـه انتماء لجنس بعينه . أومـأت برأسي شاكـرا . وكأنني أقول لـه بأن هذا كل مـا أريد أن أعرفه . وعـدت إلى الكتاب أفتحه وأفتش بين سطوره عـن القاتل . أشعل هو لفافة تبـغ ارتشف منها نفسا عميقا ، ثم أطلـق دخانها في الهواء ، فصرت أدفع عن نفسي سحـب الدخان ، وأضرب الهواء بيـدي ، في تشنـج وعصبية ، في حين واصـل هـو الحديـث غير عابئ بما أبديه من ضيق ونفور .

ـ والدتي امرأة زنجية ، نزحت مس أفـريقيا ، وأبي مهاجر من أيرلندا ، التقيا في كوستاريكا عندما كانا يعمـلان في مزارع التبغ . ولذلك فإن التبغ في دمي . رضعته مع حليب أمي . هل لك في سيجارة؟

ـ شكرا . لا أريد .

أنعم به من نسب ، قلت في خاطري . لعله يكتفي بهذا القدر من الشرح ، فأنا لا أملك وقتا أقضيه في الاستماع إلى قصة حيـاته . المنقوعة في أوحال مزارع

التبـع . إنني أتعقـب قاتـلا شديـد الدهـاء ، ولابد أن أهتـدي إليه بين هـؤلاء المشبوهين الذين يملأون عالم القصة . وهذا السيد الكوستاريكي يجعل مهمتي الآن اكثر صعوبة .

ـ إنـنـي كوستاريكـي بحكم المولد فقـط . فأنا دائم النـزوح . هندوراس . بيرو . كـولومبيـا . بيرمودا . كلهـا بلادي بحكـم الإقامـة . فالنـزوح جزء مـن طبيعتي . إنه الإرث الذي أحمله في دمي .

يجب أن أعيـد قـراءة الصفحـة مـن جديـد ، وإلا أضعـت الخيـوط التـي ستقودني إلى القاتـل . لن أدع هذا الرجـل الذي تربى في مـزارع التبغ ، والذي يهوى تغيير الأوطان وتبديلها كما يفعل الناس مـع جواربهم ، يمنعني من متعة البحث عن القاتـل واكتشافه . لقد وضعت الكاتبة في طـريقي ، رجلا شقيا ، يدمـن المخدرات ، ويعمـل وسيطا بين البغـايا وزبـائن المتعة ، لتـوهمني بـأنه القاتل في حين أن القـاتل الحقيقي ، لن يكون غير ذلـك المحسن الكبير الذي ينشئ المستشفيات ويتبرع بمالـه لملاجئ الأيتام . إنه مجرد حدس ، فأنـا مازلت أحتاج إلى مزيدمن القرائن حتى أصدر حكما قاطعا بإدانته .

ــ جئـت إلى مـالطـا في شأن مـن شئـون الجمعيـة الخيريـة التـي أتشرف بعضويتهـا . جمعية تهتم بضحايـا أمراض الوحدة والكـآبة ، وترعاهـا الكنيسة الكاثوليكية . سننشئ فرعا هنا . .

امتلأ رأسي بصليل أجراس الحرائق ، ووقع حوافر الخيول التي يركبها فرسان القديس يـوحنا في غزواتهم . ها هم رجال الخير والتقـوى ، يهيمنون على فضاء القصص البوليسيـة بمثل ما يزاحموننـي في قاعات فنادق الـدرجة الأولى . لقد رآني الرجل أجلس وحيدا ، زاهدا في الحياة الليلية الصاخبة التي تضج بها هذه الجزيرة ، فظـن بأخـلاقيات فـارس من القـرون الوسطـي ، أنني مـن ضحايـا أمراض الكآبة الذين يحتاجون لـرعاية جمعيته الخيرية . ولكنني على يقين من أن

الذي استدعاه إلى مجلسي، ليس إلا شخصيات هذه الرواية، التي أعجبها التماثل بينها وبين مناقب هذا الرجل، فاستخدمت سلطة الخيال، تسيطر بها على واقعي، وتجيء بهذا الرجل، من أقصى بقاع الأرض، وتهبط به على مقعدي. كان قد أطفأ لفافته فارتاحت أعصابي قليلا. تأملته وهو مايزال يرتدي قناعه الباسم، أحاول أن أهتدي إلى القواسم المشتركة بينه وبين شخصيات الرواية. على مشارف الستين، بني البشرة، له ملامح دقيقة، أكسبتها سنوات العمر المتقدم، رقة ورهافة، ومنحتها مسحة من الألفة والمودة. يرتدي سترة أنيقة بيضاء، وقميصا مزركشا، ينبئ بشباب القلب، ويضع في يده ساعة تشع بلون الذهب، دليل البسطة والرخاء. لو قابلته في وقت غير هذا الوقت، وبعيدا عن هذه القصة البوليسية التي تملأ رأسي بالخيالات المفزعة، لأعجبني مظهره الوديع، وارتحت لصحبته.

ـ أسمي البرتو.

مد يده لمصافحتي. وضعت يدي في يده وسحبتها دون أن أذكر له اسمي. فقد قررت أن أترك له المكان، وأنتقل مع كتابي إلى مكان آخر. وقبل أن أنهض من مقعدي، جاءت هي راكضة، تخفق بذراعيها العاريتين، وصدرها النافر الراقص. ترتدي قميصا صيفيا وبنطلونا من نوع الجينز. حسبتها ابنته، ولكنه قدمها لي قائلا:

ـ روزيتا. زوجتي. إنها خلاسية مثلي.

كان ما رأيته شيئا لا ينتمي إلا لعالم جميل مدهش، أكثر بهجة من عالمنا. عالم اختفى منه اللصوص والقتلة، كما اختفت منه أمراض الوحدة والكآبة. وما هذه الابتسامة، التي تحمل وعدا وبشارة وفرحا، وهاتان العينان النجلاوان اللتان تملآن نصف الوجه، وترسلان إشعاعا ينفذ إلى القلب، إلا علامة على ميلاد هذا العالم الجديد الجميل. جلست ذاهلا أعلق بصري بها، وأذوب في

سحر حضورها. الجسد تمثال للأنوثة في مجد زهوها وتفجرها. والوجه مرسوم بريشة مغموسة في ألوان الأفق ساعة انبلاج الصبح يتوهج ويضئ، وكأن هذه المرأة، قد هبطت لتوها من مراكب الشمس. أهملت الكتاب، بعوالمه السوداء التي تتعامل مع أكثر المناطق إظلاما في النفس البشرية، وصرت ألوم نفسي لأنني جعلت هذا الكتاب مرجعا، ودليلا، أهتدي به لمعرفة البشر الذين حولي. تفتحت مشاعري مثل زهرة عباد شمس عندما تسقط عليها أشعة الكوكب الذي يضئ الكون، وامتزجت فرحتي بشئ من الأسى وأنا أسأل نفسي، لماذا يكون حظي دائما على هذا النحو المحزن؟ لماذا لا ألتقي بالمرأة التي تشعل الحرائق في دمي، إلا وهي بصحبة رجال آخرين، سبقوني إليها، وجاءوا يصنعون سدا بيني وبينها. احتلت هي كرسيا شاغرا قبالتنا ومضت تحدث زوجها عن متجر التحف الملحق بالفندق، وتدعوه لأن يأتي معها، لعلهما يجدان شيئا يشتريانه للذكري. أقنعها بأن تذهب إلى المتجر بمفردها، بحجة أنه مشغول بالحديث معي، وخاطبني بعد ذهابها قائلا.

ـ إننا زوجان دون زواج. أي دون عقود رسمية، واحتفالات كنائسية. لاشك أنك تعرف شيئا عن تزمت الكنيسة الكاثوليكية. ولذلك فقد فارقت زوجتي الأولى دون طلاق، وتزوجت روزيتا دون زواج. إننا سعداء بهذا الترتيب الجميل.

لا أدري لماذا أحسست بشئ من الارتياح عندما قال هذا الكلام، وكأن مرافقته لها دون زواج، تزيح قيدا أخلاقيا، وتحررني من الحرج الذي أحس به وأنا أرى قلبي يشرد وراء امرأة متزوجة.

ـ لم أتشرف بالاسم الكريم.

ـ سامي.

قلت الاسم دون تردد هذه المرة، ولكن بعد أن حرفت اسماعيل إلى سامي.

ـ إنه اسم يسهل نطقه ، سامي ، سنكون أصدقاء .

لم أقل له أنني مسـافر غدا . وأن وجودي في مالطا لم يكـن إلا نتيجة سبب طارئ ، فقـد تأخرت الطـائرة التي أقلتني إلى مطـار هذه الجزيرة ، عـن ميعاد إقلاع طائرة أخرى كانت ستقلني إلى مدينتي . فأسكنتني شركة الطيران في هذا الفندق ذي النجوم الخمس ، الذي ما كنت أحلم بأن أكون نزيلا من نزلائه في يوم مـن الأيام . ولأنني كنـت معدما ، لا أملـك نقودا ارتاد بها الملاهـي ، فقد جلست بعـد أن تسكعت قليـلا في الشوارع ، في هـذه القاعـة أحارب الفـراغ بقراءة هذه القصة البوليسية .

كنت مـازلت متحـرجا مـن سؤاله عـن السبب الـذي جعله يترك المقـاعد الأخرى ، ويختـار الجلوس بجواري . ولكنـه أغناني عـن السؤال ، عندمـا قال وكأنه يقرأ أفكاري :

ـ لعلك تستغرب لماذا جئت وجلست بجوارك . كان منظرك غريبا ، وأنت تجلس بمفردك في هذا الفندق الفاخر ، الـذي يمتلئ بالملاهي وصالات الرقص والقمار ، تقرأ كتـابا . السائح لا يـأتي إلى مالطا ليفعـل ذلك . لأن بإمكـانه أن يبقي في بيتـه إذا أراد أن يقرأ الكتب . ظننتـك تنتظر صـديقا . ولكنني عنـدما تركت الفندق وعدت بعد أكثر من سـاعة ، لأجدك ماتزال تقرأ هذا الكتاب ، أدركت على الفور أنك رجل نادر . رجل استثنائي ، استطاع ان ينجو بنفسه من سبـاق الفئـران ، ويحتفظ بشخصيتـه المتميـزة ، التـي تتنزه عـن تقليـد ومجاراة الآخرين . تذكرت على الفور القـديس أوغسطين . العمل الطويل بجمعيتنا ، جعلني أملك بصيرة أهتدي بها إلى البشر المتفردين ، الـذين يعيشون في عالمهم الخاص المليء بالثراء الروحي . فأحببت أن أتعرف إليك .

شكـرته على هـذه البصيرة النافـذة ، التي تملـك القدرة على التـواصل مـع القديسين واحتسـابي واحدا منهـم . ولكن لماذا تـراه اقتحم هـذا العالم الخاص

الذي رآني مستمتعا به؟ هل أقول له إن العالم الـذي ظنه عالما فريدا روحانيا ، لم يكن إلا عـالم الجيوب الفارغة الـذي دعاني لأن أسجن نفسي في هذه القـاعة ، وأبقى بصحبة القتلة والمجرمين الذين يمتلئ بهم عـالم أجاثا كريستي . وأنني ما كنـت لأعبأ بـه ، أو بما يقولـه مـن شفافيـة بصيرتـه لولا هـذه الأنثى المحملـة بعواصـف وبراكين جبـال الأنديز ، وتـوحش غابـات الأمازون ، التـي جاءت منها ، والتي أرغمتني على أن أتخلى عن عـالمي الخاص وأسعى للاحتراق داخل عوالمها . تأكد لي أنه قادر على قراءة الأفكار ، عندما قال :

ـ مارأيـك في روزيتا . لاتقل إنها لم تفتنك بجمالها . لأن هذا مـا تفعله مع كل الناس . جميعهم يسقطون ضحايا حبها منذ أول نظرة . أليس هذا ما حدث لك أنت أيضا؟

ماذا بأمكـاني أن أقول لقد عبر عن مشاعـري بأكثر مما أستطيـع البوح به . فـأنا لسـت إلا واحدا مـن ضحايـاهـا ، دون ريب . وبما أنـه ألبسني مسـوح القديس أوغسطين ، فإن اعترافاتي لايجب أن تكون أقـل صراحة من اعترافاته . قلت له :

ـ نعـم . هذا ما حـدث معي . ويجب أن تعـذرني في دلك . لأن لها جمالا يستحق العبادة .

ثم وضعت يدي على كتفه ، وكأنني أطلـب منه الصفح على ما بدر مني ، قائلا له :

ـ إنك رجل محظوظ ، محظوظ جـدا ياصديقي ، لأن الآلهة أكرمتك بها دون غيرك .

ولا أدري ماذا أصابني ، فبقيت ذاهلا ، صـامتا ، أنظر في الفراغ ولا أبدي أية حركة عندما سمعته يقول ، دون تمهيد أو إنذار:

ـ ألا تحب أن تستضيفها هذه الليلة في فراشك .

كانت هذه الجملة صفعة قوية ، هبطت على وجهي ، فجعلتني غافلا عن الدنيا لدقيقة أو أكثر. لم أستطع أن أصدق أن هذه المرأة ، سلعة للبيع والشراء ، وأن هذا الرجل تاجر، يبيع فتنتها وجمالها لزبائن الفنادق الراقية . كان كتاب أجاثا كريستي ، مازال بين يدي ، وسطوره التي تحكي عن سماسرة الجنس ، تضغط الآن على ذاكرتي ، وكأنها تشير إلى هذا التوافق الغريب بين ما يحدث في الكتاب ، وما يحدث الآن .

ماذا أستطيع أن أقول له الآن؟ لم يكن جلوسه بجواري إذن ، إلا جزءا من الخطة التي أعدها لاصطيادي ، ولم يكن حديثه عن الكنائس والقديسين والجمعيات الخيرية إلا غلافا جميلا ، يغلف به نفسه ، حتى يجعل الناس يأنسون إليه ، قبل أن يكشف لهم هويته الحقيقية . لاشك أنه كان يعرف أنني عربي ، واحتسبني من أثرياء العرب ، عندما رآني أقطن فندقا من فنادق الدرجة الأولي . لابد أن تجاربه علمته أن العرب أكثر كرما عندما يتعلق الأمر بامرأة لها مؤهلات روزيتا .

كنت قد استعدت توازني بعد الصدمة التي أحدثها عرضه الفاخر.

ـ وما هو الثمن الذي تريده مقابل ذلك؟

أردت منذ البداية أن أستخدم لغة تتفق وقواعد المهنة التي يقوم بها .

ـ كل ما نريده هو إسعادك .

هذا ما يقوله أرباب الابتزاز في كل أنحاء الدنيا . يمتنعون عن تسمية الثمن بحجة أنه لاغرض لهم سوى إسعادك . ليتني أستطيع أن أتظاهر بالغباء ، وأصدق أنه آثرني بهذه الهدية الباذخة ، نتيجة إعجابه بي ، ورغبته في إسعاد رجل يعاني الوحدة والكآبة مثلي ، فأمضي بها إلى غرفتي ، واستضيفها في فراشي ، دون أن يطالبني أحد بدفع الثمن .

كـانت روزيتـا قـد عـادت في هذه اللحظـة ، وفي يـدهـا قلادة مـن الخرز الأزرق ، تبدي إعجـابها بها ، وتسأل زوجها الوهمي عـن رأيه فيها . أخـذ منها القلادة يقلبهـا أمام عينيه ، ويطري روزيتـا على ذوقها ثم أضاف وهـو يلتفت نحوي .

ـ روزيتا تؤمن بالحظ ، وتعتقد أن الخرز الأزرق يجلب الفأل الحسن .

أعاد إليها القلادة قائلا :

ـ صديقنا سامي معجب بك . ويريد أن يقضي هذه الليلة في صحبتك ، فما رأيك؟

ـ الرأي رأيك ياعزيزي .

ـ إنه يسأل عـن الثمن ، فأخبرته أن الحب لا ثمن له ، لأن المسـألة ليست بيعا وشراء .

ابتسمت المرأة في دلال ، قبل أن تقول :

ـ نعم ياعزيزي البرتو . فالدنيا كلها لاتساوي شيئا بغير الحب .

ثم أضافت وهي ترفع بصرها نحوي .

ـ إنـه يروق لي . فهو إنســان لطيف ، يحب قـراءة الكتب . أنظر إليـه . إنه مازال ممسكا بـالكتاب ، ويضع أصبعه بين الصفحات ، يخشـى أن يضيع منه السطر الأخير الذي توقف عنده .

مد ألبرتو يده يأخذ مني الكتاب .

ـ هـل رأيت . أن روزيتـا تحبك ، وتغـار عليك مـن هذا الكتـاب . دعنا نطوي هذه الصفحة هكذا . يمكنك أن تعود إليه غدا .

طوى الصفحة وأعاد لي الكتاب قائلا :

ـ لم يعـد لي مكان بينكما. سـأذهب إلى غـرفتي الآن، وأراكما غـدا. حظا سعيدا لكما.

ذهب البرتـو وتركنـي وحدي في مواجهـة هذه المرأة الخلاسيـة القادمـة من جبـال الإنديـز. لم يكن ممكنـا لهذا الجمال الباهـر، هذه المائدة الإلهيـة العامـرة بأصناف، اللذة والفـرح، أن تبقى احتكاراً لرجل واحد في الـدنيا. خاصة إذا كان هـذا الرجل معنيـا، مثل البرتو، بهموم البشر المصـابين بأمراض الـوحدة والاكتئاب مـن أمثالي. فهو يعـرف أن علاجـا كهذا سوف يضمـن لهم الشفاء العاجـل الناجع. أردت أن أسـأل روزيتا عن سر عـلاقتها بهذا الرجـل الذي يتعيش من بيع لحمها في الاسواق، ولكنني وجدته سؤالا مجانيا، لن يضيف لي معرفـة جديـدة، وقد يسبـب كدرا لها. فهـذه هي قـواعد السـوق. لقد أدى السمسار مهمته، وسوف ينال ثوابه بعـد انتهاء الصفقة، ولم يبق أمامي إلا أن أعرف الثمن، حتى أنسحب بكرامتـي، وكأن انسحابي جاء اعتراضا على مبدأ الاستغلال وليس عجزا عـن دفع الثمن. وقبل أن أبادرها بـالسؤال، تطوعت هي بالإجابة قائلة في جمل بطيئة، تفصـل بينها لحظات صمت وتأمل ومداعبة عصبية للخرز الأزرق، إمعانا في الحبكة و إتقان الدور.

ـ البيرتو توسم فيك الشهامة منذ أن عرف إنك عربي.

إذن فقد صـدق حدسي، إنه لم يـأت للجلوس بجواري إلا بعـد أن أكمل تحرياته عنـي. توقفت روزيتا قليلا عـن الحديث، وهي ترفع أهـدابها الغزيرة نحوي وتضـع عينيها الكبيرتين المضيئتين مبـاشرة في عيني. لم تكـن تحتاج لأن تستخدم معـي كل هـذه الأسلحة، فأنـا منذ أن رأيتهـا أعلنت استسـلامي، ورفعت أمامها الرايات البيضاء دليل عجزي وهزيمتي.

ـ وأدرك أنك أنت الذي ستنقذنا من ورطتنا.

نعم. نعـم. هكذا تبدأ القصـص الجميلة التـي يحيكها الشطار مـن أهل

الحيلة والخداع. أراهـن أنها ستتحدث عن النقـود التي سرقهـا اللصوص، أو استولى عليها أصحـاب موائد القمار، الذين يبتزون بـراءة الزبائن الذيـن يأتون للفرجة والتسلية.

ـ لقد سهرنـا البارحة في صالة القمار بهذا الفندق، ودون أن نـدري وجدنا أنفسنا نخسر كل مـا معنا من نقود. قد لا تصـدق أنه لم يبق بحوزتنا مـا ندفع به ثمن إقامتنا في الفندق التي استمرت أكثر من أسبوعين.

ها هي تؤكـد حدسي مرة أخرى. إنني واثق مں أنها تعـرف، أنني أنا أيضا أعرف، إن ما تقوله ليس إلا حكاية ملفقة. ولكن الثمن الكبير الذي تطلبه في حاجـة هو الآخـر إلى غلاف مـن الخيال الجميـل الذي يـزيل عنـه الفجاجـة والسوقية.

أعجبتني قـدرتها على تلفيق هذه الحكايـة، وتأسفت في خاطـري لأنني لم أكـن أملك مـالاً ينقذهـا من ورطتهـا الـوهمية ويشتري لي ليلـة حب معهـا. تذكـرت أنني لسـت ضحية لخداعها فـأنا الـذي خدعتها بـوجودي في هـذا الفندق ذي النجوم الخمس، حتى ذهب في ظنها أننـي من الأثرياء القادرين على شراء هذه الموائد الإلهيـة. ولذلـك سأواصل لعبـة الخداع، وسألعبهـا مع نفسي هذه المرة، سأحارب فورة الدم في عروقي التي تطالب بلحظة اشتباك مع دمها وعروقها. سأدعي أمام نفسي بأنني أعافها ولا أريد معاشرتها، لأنها امرأة سوقية تبيـع نفسها في أسواق اللحم البشري، أعـرف أنني أكذب على نفسي، وأن اشتهـائي لها، الذي لم يتحقـق هـذه الليلـة، سيترك حسرة لن تنطفئ في قلبي. وسـأستخدم أجـاثا كريستـي، وعالمهـا المليء بالمجـرمين في لعبة الخداع هذه. سأفتح الكتاب الآن وسأبحث عن الصفحة التي توقفت عندها لأوهمها بأنني زاهـد في إتمام الصفقة معها. رأيتها تنظـر نحوي باستغراب، وأنـا افتح الكتاب، فقلت باسما:

ـ إنها قصة بوليسية مثيرة .

اكفهر وجهها وتشنجت أصابعها وهي تمسك بالخرز الأزرق، وسألتني بانفعال :

ـ ماذا قلت؟

ـ قلت لك إنها قصة لأجاثا كريستي عامرة بالغموض والإثارة .

ـ أعني ما قولك فيما أخبرتك به .

ـ إنها فعلا ورطة . أتمنى صادقا لو أقدر على المساعدة، ولكن . . .

ـ ولكن ماذا؟ ألم تقل إنك تريد أن تقضي وقتا معي .

ـ أتمنى أن أكون عريسك ولو لساعة واحد، ولكنني أحتاج إلى عام كامل حتى أستطيع توفير المهر الذي تطلبينه .

ـ الذنب ليس ذنبك . أنه ذنب ألبرتو الذي يضعني دائما في مثل هذه المواقف اللعينة .

ثم أضافت وهي تنهض غاضبة :

ـ سهرة ممتعة بصحبة أجاثا كريستي .

وبخطى سريعة غادرت القاعة . ذهبت روزيتا، تحمل معها عبير أنوثتها، وضوء ابتسامتها، وبقيت وحدي مع أجاثا كريستي، وعوالمها السوداء، المليئة بجرائم القتل الغامضة .

ليلة الأقنعة

دخل إلى قاعة الاحتفال، يضع فوق وجهه قناع الحمار.

كانت إدارة القرية السياحية قد وضعت في برنامجها ليلة اسمتها ليلة الأقنعة، وعرضت داخل حانوت القرية، اعدادا كثيرة ومتنوعة من الأقنعة لكي تتيح لرواد هذه الحفلة مجالا واسعا للاختيار.

ذهب قبل ساعات من موعد الحفل، إلى الحانوت، ووقف وسط غابة الاقنعة يحاول ان يجد قناعا يروق له. وضع فوق وجهه قناع الاسد، فوجده ضيقا، يضغط علي صدغيه وذقنه وجبينه، ونظر إلى وجهه في المرآة، وشاهد عينيه وهما تتحولان إلى جزء من ملامح الاسد، فوجدهما لايليقان بمهابة ملك الغابة. وبرغم شراسة الانياب، وكثافة الشعر الذي يحيط بوجه الاسد، واتقان مصمم القناع لبقية الملامح، الا أن هاتين العينين هما اللتان تجعلان الاسد اسدا. كذلك الحال مع النمر، الذي بدت عيناه اكثر انطفاء عندما ارتدى قناعه، ووضع عينيه مكان عيني ذلك الحيوان الذي يشبه سهما مشتعلا. تأكد له انه لايصلح لدور زعيم من زعماء الغابة، وعليه ان يبحث لنفسه عن مكان متواضع بين افراد الرعيه. وقبل ان يهبط باختياره إلى الفئات التي تشكل أدنى درجات السلم الاجتماعي بين كائنات الغابة، رأى ان يحاول حظه مع الصقر. انه طائر، نبيل كريم، يحب الحرية، ويعشق القمم العالية، وجدير بمثل هذا القناع ان يمنحه احساسا بعلو الهمة ويزيل عنه الحرج الذي يشعر به دائما في

مثل هذه الحفلات اللاهية . ولكنه عندما نظر إلى وجهه في المرآة ورأى المنقار المدبب الطويل ، ومساحة العينين الضيقتين ، أدرك إلى اي مدى يصنع هذا القناع نشازا مع بقية جسمه . أعاد القناع إلى مكانه وهو يشعر بالأسف ، ومضى يتأمل الأقنعة الاخرى المعلقة في الحانوت . ترك الحيوانات ذات القرون ، فلم يقترب منها مثل الثور ، والجمل ، والوعل ، والتيس ، بما في ذلك وحيد القرن ، فهو لايريد ان يسعى بين الناس وقد وضع فوق رأسه قرنا او قرنين . ولكنه لم يتردد في تجريب أقنعة كثيرة أخرى . الحصان والكلب والقط والذئب والثعلب والارنب والقرد والدب والضبع ، كلها وضعها فوق وجهه .

وتأمل صورته في المرآة وهو يرتديها ، وسأل البائعة عن رأيها فيها فلم ترضها الصورة التي ظهر بها ، ولم ترصه هو ايضا . رأى اقنعة اخرى تحمل وجوه ضفادع وجرذان وسحالي وسناجب فلم يقترب منها ، لأنه لم يشأ ان ينتمي لعالمها ، ومضى إلى صف يضم اقنعة مستوحاة من افلام الرسوم المتحركة وابطالها مثل ميكي ماوس ، والبطة دونال دك ، والخنازير السبعة ، فوجد أنها أقنعة دارجة ، مستهلكة ، لا تثير فضوله . وقف حائرا ، يجول ببصره في معرض الوجوه الحيوانية ، وهو يضحك من نفسه ، ومن فكرة هذا الحفل الذي لم يعهد مثله من قبل . ويسأل نفسه إن كان من الحكمة أن يكون طرفا في مسخرة كهذه ، حتى وان كانت تليق بصبيان دون العشرين ، فهي لا تليق بمن وصل مثله إلى منتصف العمر . أراد ان يغادر الحانوت ويعدل عن فكرة المشاركة في الحفل التنكري ، عندما رأى وهو يخطو باتجاه الباب قناع الحمار يعترض طريقه . وقف يعاود التفكير وينظر إلى القناع . تذكر العلاقة التي ربطت بينه وبين هذا الحيوان عندما كان صغيرا لم يغادر القرية بعد ، ورأى بخياله صورة ذلك الحمار العجوز الهزيل الذي كان يعيش معهم داخل البيت ، ويعاملونه كفرد من أفراد العائلة ، وعادت إلى الذاكرة تلك المشاوير التي كان يذهب فيها رفقة الحمار إلى غابة النخيل خارج القرية او إلى حقول البطيخ ، حيث يعود به

محملا بالبلح أو البطيخ أو الحطب ، وهو يركب فوق الحمولة ، يدندن ويغني ، والحمار يمشي سعيدا وكأنه يرقص ، ونشأت ألفة بينه وبين ذلك الحمار حتى صار يتولى بنفسه تقديم الماء والطعام له ، وعندما اشتد بالحمار المرض نتيجة الهرم ، أخذوه إلى البادية ليلقى مصيره فريسة للسباع . عرف بما حدث فظل لأيام طويلة يبكي أثناء الليل ، ويسأل أهله بحرقة ولوعة عن مصير الحمار بعد الموت ، وعما كانت الحمير ايضا تذهب إلى الجنة .

فقد كان يرى ان هذا الحيوان الطيب الصبور المكافح ، هو أجدر الكائنات بدخول جنة الرحمن .

رأته البائعة يقف طويلا أمام قناع الحمار، فمدت يدها تناوله القناع وتساعده في تثبيته فوق وجهه . أحس منذ اللحظة الاولى لارتدائه ، ان هذا القناع هو بالضبط ما كان يبحث عنه . وسأل البائعة فأبدت حماسا كبيرا لوجه الحمار، ورأته يليق به اكثر من أي حيوان آخر. كان القناع مريحا ، وكانت ملامح وجه الحمار الكبيرة تصنع فراغات واتساعات لاتضغط على اذنيه وعينيه وأنفه وفمه كما هو الحال مع الأقنعة الاخرى ، وتتيح له ان يرى ويسمع ويتنفس ويتكلم دون مشقة . وعندما نظر إلى وجهه في المرآة ، اعجبه هذا التناسق بين وجه الحمار وبين مظهره الخارجي ، وكأن جسمه لم يخلق الا ليناسب رأس الحمار. لم يعد ثمة داع للتردد ، لقد جعله هذا القناع اكثر حماسا للمشاركة في مثل هذا الحفل الطريف ، الذي سيكون هجاء لحياة البشر، وتمجيدا لعالم البهائم والحشرات . اشترى القناع وانتظر حتى جاء موعد الحفل ، فوضعه فوق وجهه ، ودخل إلى القاعة الفسيحة التي سبقه إليها جمع غفير من لابسي الاقنعة . اكتشف انه وسط غابة تمتلىء بمختلف اشكال الحيوانات . أجال بصره في ديكور القاعة ، وشاهد اشجارا سامقة مصنوعة من ورق كرتوني تتسلق الجدران وتتدلى منها عراجين الضوء . فأحس كأنه يدخل غابة سحرية .

كل شيئ داخل الغابة بدا منسجما مع روح الحفل، بما في ذلك منشطة الحفل التي بدت وكأنها جنية من جنيات الغابة. علقت في جيدها عناقيد الزهور، ورشقت وردا احمر وابيض بين جدائل شعرها الأشقر، وارتدت فستانا يشبه اجنحة الفراشات، تحيط به دوائر فوسفورية تجعله يلمع ويضيئ، تركت وجهها عاريا لكي تميز نفسها، عن بقية رواد الحفل، ممن غطوا وجوههم بالأقنعة، وارتدوا ملابس السهرة العادية، فصار سهلا عليه ان يميز بين الذكور والإناث.

كانت منشطة الحفل، تمسك مكبر الصوت وتسأل الحاضرين ان يمتنعوا عن الحديث بلغة البشر، وان يمرنوا أنفسهم منذ بداية الحفل، على إصدار أصوات تتفق مع الاقنعة التي يرتدونها. امتلأ المكان بنقيق الضفادع، وصهيل الجياد وزئير الاسود، وعواء الذئاب، ونباح الكلاب، ومواء القطط ومأمأة الحملان وخوار الثيران، وصياح القرود، ووجد أن عليه ان ينهق مقلدا صوت الحمار.

ظل صامتا لفترة قصيرة، يحاول ان يتغلب على الحرج الذي يحس به. لقد ارتضى ان يضع فوق وجهه قناع الحمار، اما ان يتمثل احاسيسه وسلوكه ويصدر نهيقا مثله، فهذا ما بدا له مهمة بالغة الصعوبة. وجد ان منظره وهو يقف صامتا، يثير الدهشة في عيون رفاقه من ساكني الغابة. فبدأ ينهق بصوت خافت. اعجبته اللعبة، وأحس بمتعة الاندماج في أجواء الحفلة، فصار يرفع صوته وينهق نهيقا عاليا كما تفعل حمير قريته. اكتشف ان هناك آخرين ينهقون مثل نهيقه، رجالا ونساء، يرتدون مثله قناع الحمار. فأحس بالارتياح لأنه ليس الحمار الوحيد في هذا الحفل.

وكانت جنية الغابة، ترفرف بأجنحتها تحت الأضواء، وتمسك مكبر الصوت وتهنئ المحتفلين بإجادتهم لأدوارهم، وقدرتهم الفائقة على التحول من

طبيعتهم البشرية إلى طبيعتهم الحيوانية التي اكتسبوها منذ لحظات قليلة، وتدعوهم لان ينسى كل واحد مهنته وتعليمه ومستواه الاجتماعي، والبلد الذي ينتمي اليه، ويسعى لأن ينسجم انسجاما كاملا مع روح وطباع وشخصية القناع الذي يرتديه، فهي لاتريد ان ترى بشرا هذه الليلة، وانما حيوانات الغابة وهي تفرح وتحتفل بهذا السلام الذي تحقق بين فئاتها المتصارعة. لكن الصراع لم يكن قد اختفى نهائيا من فوق أرض الغابة، فها هم الذكور يطوفون حول الإناث، كما تفعل ذكور الغابة مع اناثها، ويتحرشون ببعضهم البعض. ها هو أسد يخاصم اسدا حول امرأة ترتدي قناع إنثى الأسد، وها هو قرد يناوش قردا آخر حول امرأة ترتدي قناعا ينتمي إلى فصيلة القرود. غير انه تحرش يكتفي بالزئير والصراخ ولا يصل إلى العراك والاشتباك بالانياب والبراثن، مراعاة لتقاليد اللعب، وحرصا على مبدأ السلام الذي تحقق لأهل الغابة.

حاول هو ايضا ان يجد حمارة يطاردها، وينهق قليلا في وجه الحمار الذي يطوف حولها، ولانه لم يجد واحدة قريبة منه يلعب معها، فقد مضى يشق الزحام بحثا عنها. وقبل ان يصل اليها، رأى امرأة ترتدي قناع القطة، عرف على الفور انها ذات المرأة التي رآها تخرج من دكان الأقنعة وهي ترتدي ذات القناع، كان قد رآها قبل ذلك، وانتبه إلى مؤهلاتها الأنثوية، التي زرعت أشجار النار في قلبه، صدر فائر يمشي امامها، وشفتان مكتنزتان تفصل بينهما انفراجة صغيرة، وكأنهما في حالة استعداد لتلقي القبلات، وجسم يترجرج ويصدر دعوة صريحة للدخول في لعبة الحب. حاول في إحدى الليالي الراقصة ان يتعقبها وان يفوز برقصة معها، فاخترق الحصار الذي يضربه حولها رجال معجبون بجمالها، حتى وصل اليها، فلم يجد منها غير الرفض والصدود. لعل هؤلاء المعجبين يغفلون عنها هذه الليلة، فلا يهتدون إلى شخصيتها وهي تتنكر خلف هذا القناع، فيهنأ بليلة حب معها. انه لم يأت في هذه الإجازة، وينضم إلى هذه القافلة من السواح الذين انتهى بهم المطاف إلى هذه القرية السياحية،

إلا بحثا عن مغامرة عاطفية، يتيحها له تسامح العلاقات في هذه المدن الاجنبية، تكون تعويضا لأيام القحط والجفاف التي عاشها وسط تقاليد مدينته الصحراوية، التي ترتدي قناع الفضيلة، وتفصل بين الرجال والنساء.

ولكن كيف تراه يستطيع ان يقفز فوق الحواجز التي وضعتها الطبيعة بين القطط والحمير. ليته عاد إلى الدكان، عندما رآها تشترى قناع القطه، واشترى قناعا مثل قناعها، إذن لسهل عليه ان يفوز بصحبتها هذه الليلة، ان للعبة قوانينها، فكيف يستطيع العبث بهذه القوانين التي تمنعه من الوصول اليها. ادرك انه كان حمارا بالفعل لا بالقناع فقط.

كانت منشطة الحفل قد وجدت ان الوقت صار مناسباً للرقص. لقد نجحوا في الاختبار الاول عندما هجروا لغة البشر، إلى لغة العواء والنهيق والزئير، وها هي تدعوهم إلى الاختبار الثاني، الذي يؤكدون به انتماءهم إلى المملكة الحيوانية. دخلت إلى حلبة الرقص، وبمساعدة الموسيقى، ودائرة الضوء التي تتبعها، والتي تجعل المادة الفوسفورية في ردائها اكثر توهجا وإشعاعا، تحولت إلى فراشة من نار، تخفق بذراعيها، وترقص وكأنها تطير في الهواء. ودعت الحاضرين إلى ان يرقصوا مثلها، رقصًا يتناسب مع الأقنعة التي يرتدونها. ليحاول الاسد ان يرقص الرقصة التي تناسب الاسود، وهكذا مع الغزلان والثيران والقرود والصقور، بدأ الناس يضربون الهواء بأقدامهم ورؤوسهم وأيديهم. يقفزون كالقرود، ويسبحون بأذرعهم في الهواء كأجنحة الطيور، ويضربون الارض بحوافرهم كالجياد، ووجد نفسه وسط موجة تحمله معها، وتقذف به في قلب حلقات الرقص. فصار يرفع رأسه إلى أعلى يتنسم الهواء، ويقلد الحمار في حالة هيجانه وهو يركل الارض ويضرب الهواء بحوافره، منتشيا بهذه الحرية التي يمنحها له قناع الحمار، يرفص ويبرطع ويدوس على أقدام الآخرين او يدوسون على قدمه، فلا شئ يهم. انه مستمتع

بهذه الطبيعة الحيوانية التي تتيح له ان يرقص دون ان يخشى على نفسه لوم اللائمين لانه يجهل قواعد الرقص.

واصلت الفرقة عزفها الذي يشبه العواء، وواصلت الاضواء التي تأتي من سقف القاعة، في شكل دوائر وومضات سريعة، تدفقها الذي أصفى على حركة الراقصين مزيدا من الاثارة، وتابع هو رقصه البهيمي، واصدار نهيقه بين الحين والآخر، كلما اقتربت منه امرأة تهز صدرها وعجيزتها وهي تقلد رقص الخنازير. احس بالتعب. فترك ساحة الرقص، وانتحى جانبا يستلقط انفاسه، ويمسح العرق الذي ينضح به عنقه وصدره ويحاول ان يهتدي إلى المرأة التي ترتدي قناع القطة، بعد ان تاهت عنه اثناء الرقص. تجول في زوايا القاعة باحثا عنها، فاكتشف ان هناك غرفا صغيرة تجاور القاعة، شحيحة الاضاءة، مليئة بالارائك والكراسي المريحة، التي جلس فوقها عدد من رفاق الحفلة، وتوزعوا أزواجا، ذكوراً وإناثا، يتسامرون ويتعانقون، ويتركون أقنعتهم أحيانا، ليقبلوا بعضهم بعضا دون التزام بتعليمات مذيعة الحفل، ودون التزام بأن يرافق الذكر امرأة من بنات جنسه، فقد رأى في هذه الغرف، الأسد يرافق كلبة، والثور يعانق سحلية، ووحيد القرن يجالس الزرافة، والذئب يبث حبه للدجاجة، والوعل يناجي الخنزيرة. لقد كان حمارا عندما ظن ان للغابة قانونا. ان الغابة تقفز فوق كل القواعد والقوانين هذه إذن فرصته لأن ينفرد بتلك القطة التي سحرت عقله وقلبه ويرتشف من كأس جمالها وانوثتها حتى الارتواء. لم يستطع ان يصل إليها بأساليب البشر، فليحاول ان يصل اليها بأساليب كائنات الغابة. مضى يبحث عنها، دون ان يعبأ هذه المرة، بحديث المذيعة التي مضت تحرض رواد الحفل على الاندماج في ادوارهم وتغريهم بجائزة كبرى سوف تخصص للفائز الذي يبز الآخرين ببراعة تجسيده وتقليده للحيوان الذي اختار ان يرتدي قناعه. رأى قطته تقفز بين الراقصين وتصدر مواءً ينضح إغراء وجنسا، فسار حتى وصل اليها، ومضى يرقص وينهق

بجوارهـا ، يداعبها ويلعـب معها ، ويحاول ان يجعلها تـأنس له . أبطـأ العزف وابطـأت معه حـركات الـراقصين ، فرآهـا فرصـة لأن يراقصهـا رقصا بطيئـا . احاطها بذراعيـه ، وألصق جسمه بجسمها ، واسند رأسه فـوق رأسها . احس بها تـدفعـه عنهـا وتحاول ان تحرر جسمهـا من قبضتـه لكـي تعـود إلى رقصهـا السريـع ، ولكنه ازداد التصـاقًا بها وحـرصا على أن يبقيهـا في حضنه . تشنـج جسمه كلـه وهو يحتوي جسمهـا ويمنعها من المقـاومة . مضى يـراقصها رغما عنها ، ويدفـع بها أثناء الرقص بـاتجاه الغرفة التي تجاور القـاعة . وصل بها إلى باب الغـرفة ، وجرهـا بقوة إلى احدى الارائك وهي مـاتزال تقاوم وتحتـج حتى أجلسها فوق الاريكـة وارتمى بجوارها يعتذر لها عـن هذه الطريقة الفجـة التي عاملها بها ، لانه لم يجد طريقة غيرها وسـط هذا الصخب والعواء ، يرغمها بها على ان تستمع اليه ، لان لديه شيئا مهما يريد ان يقوله لها . وقبل ان يبدأ في سرد اقوالـه المهمة ، أمسك بـذراعها وأعادها بقـوة إلى الأريكة ، ولكي يمنعهـا من الهروب ، ارتمى فوقهـا ، يسألها ان تستمـع لما سيقوله لها وان تتيـح له فـرصة ان يفوز بلحظة حب معهـا . اطلقت هي صراخا عاليا ، جعـل الحاضرين يهبون لنجدتها ، ويتعاونون على رفعه من فوقها . كان هو قد أدرك قبح فعلته ، فوقف مرتبكـا ، عاجـزا عن الكـلام ، ترى كيف يبرر فعلتـه ويدافـع عن اتهامهـا له بمحاولة اغتصابها ، هل يشفع له ان يقول بانه كان فقط يداعبها ويلعب معها كما يحدث في افلام الرسوم المتحركة ، ام تراه يخبرهم بانه اندمج في دوره استجابة لقوانين اللعبـة وتعليمات المشرفين على هذه الحفلة ، فـلاحق لهم في لومـه اذا ما أتقن دوره وتمثل أحاسيس الحمار وراودته الشهوة الحيوانية التي تراود الحمير.

لقد كان حمارا ، ولأنه لايملك وجها جميلا ، ولا صوتا عذبا ، ولا عقلا نابها يزهو بـه أمام كائنات الغابة ، فقـد استخدم الشئ الوحيد الـذي تفوق به على بقية الكائنات ، أداة الإخصاب لديه .

أحس بـالفزع الشديـد ، وهو يراهـم يسحبونه مـن ذراعه ، ويسوقـونه إلى

المنصة ويقفون به تحت الاضواء الساطعة ، وقد غمر القاعة صمت الترقب والانتظار. كان على يقين بأنهم سيفضحونه امام رواد هذه الحفلة ، ويدينون سلوكه المشين الذي سيقوده إلى المحكمة وإلى أعوام من السجن تتناسب مع جريمة الاغتصاب . ولدهشته الشديدة وجدهم يضعون كأسا في يده ، ويعلقون طوقا من الزهور في عنقه ، ويعلنون اسمه باعتباره الفائز الأول في المسابقة ، الذي انسجم سلوكه مع القناع الذي يرتديه ، لقد كان جديرا بأن يحمل لقب الحيوان الأول هذه الليلة .

صفحة فارغة

الانتقـــام

تقلقني دائما هذه المشـاهد، التي أهملتها الـذاكرة زمنا طويـلا، وخبأتها في جيب من جيوبها السريـة، ثم أخرجتها فجأة إلى سطح الأنا التـي تتعامل مع الدنيا فتظهـر دون سبب واضح لظهورهـا المباغت. وتأتي مصحـوبة بنداءات تطالب بالانتقام، وتضج بأماكن ووجوه وأصوات وخصومات قديمة، ظننت أنها سقطت من ثقوب الذاكرة بحكم التقادم ولكنها ظلت تختبئ في مكامنها، واختـارت هذه اللحظـة لمداهمتي، وقـد حملت في يـدها سيـاطا تجلـدني بها، وتمنعني من أن أهنأ بلحظات الراحة التي ينعم بها بقية الناس. وهي لاتأتي كما تأتي الذكـريات الأخرى التي تحولـت بفعل كيمياء الزمـن، إلى أشباح وأطياف لاملامح لها، وإنما تجئ وقد ارتدت أقنعة عصريـة، وملابس تنكرية تخفي بها طبيعتها التي تنتمي إلى مـاض بعيد، لكي توهمني بأنها جـزء من حاضر مازال يواصل فعله في الواقع والحياة. فـأجد نفسي، متورطا في لعبة الانتقام وتصفية الحساب التي ساقتني إليها، اشتبك في خصـومات انتهى زمانها، مع أناس لم يعد لهم وجود إلا في ذهني. أتصارع معهـم، وأنتقم لنفسي منهم، وقد واتتني الآن الفصاحة، التـي غابت عني في ذلك الـزمن القديم، لأقـول لهم كلاما لم أقله يـوم وقوع الواقعـة، كما واتتني الشجاعة، لأفعـل ما أحجمت عـن فعله ذلك اليـوم البعيد. ألـوم نفسي، وأشبعها تقريعـا وتوبيخـا، لأنني صبرت، مثلا، على ظلم ذلك المدرس الذي جاء يعاقبني، عندما كنت تلميذا صغيرا، على فعل لم ارتكبه. يعاودني غضبي، وأحس بلسعة العصا فوق أصابعي، كما

أحس بعرق المهانة يغمر جسمي ، لأنني استسلمت لظلمه ورجعت إلى مقعدى صامتا أكتم غيظى . إنني لن أنام هذه الليلة قبل أن آخذ بثأري . لابد أن أعيد ترتيب المشهد من جديد ، لكي أستطيع أن أفعل مالم أفعله ذلك اليوم . هأنا الآن أثور في وجهه ، وبدلا من أن أمنحه يدي ليضربها ، أمد يدي لأمسك العصا التي يهددني بها ، قائلا له ، لقد أخطأت في حقي ، لأنني لست المذنب وإنما المذنب تلميذ غيري ، لاشك أنك تعرفه ، وتتجنب أن تعاقبه ، إكراما لوالده الذي يمنحك رشوة كل شهر باسم الدروس الخصوصية . أقول هذا الكلام وأنا أتقلب في سريري ، وانتظر نوما لايأتي ، لأن سلوك ذلك المعلم الذي مضى عليه أكثر من أربعين عاما جاء الليلة يقلقني ، ويطرد النوم من عيني ، فأقفز فوق حاجز الزمن ، وأنصب هذه المحاكمة لمعلمي القديم ، وكأنه يمثل الآن أمامي ، وكأن خصامي معه لم يحدث إلا هذه اللحظة .

أعرف يقينا ، أنه لامعنى الآن لانفعالي وغضبي ، ولا قيمة لهذا الكلام الذي جئت أقوله لمعلم ، هو الآن يتقاضى جزاء ظلمه لي ، في الدار الآخرة التي لابد أنه انتقل إليها .

ولكن ، ماذا أفعل إزاء هذه الذاكرة العجيبة ، التي تعيد إنتاج مشاهد الظلم والأذى ، وترغمني على أن أعيش مايرافقها من ألم ومعاناة ، سنين طويلة بعد وقوعها .

وهذا بالضبط ، ماحدث معي اليوم ، وأنا أطوف الدكاكين أبحث عن لعبة أقدمها هدية لولدي في عيد ميلاده . . إنها مناسبة للابتهاج ، ولكن ذاكرتي ـ سامحها الله ـ تأبى إلا أن تمنحني مناسبة أخرى للكدر ، وهي تخرج لي من بئر ذكرياتها القديمة المهجورة ، مشهدا آخر ظل نائما في الظلام ، أكثر من عشرين عاما .

تلتحـم اجزاؤه المفككـة بعضها ببعـض ، فيعود المشهـد طازجـا ، يرتـدي ألبسته الحديثـة وكأنه لم يحدث إلا منـذ دقائق مضت . وإذا بـالرجل أمـامي ، واقفا خلف طاولة الحانة ، بلحيته الحمـراء المدببة ، ونظارته الطبية ذات الإطار المعدني الـرفيع ، وحاجبيه المعقـودين فوق عينين صغيرتين كعينـي جرذ ، يخدم زبائن الحانـة ، في تلك المدينة ، في ذلـك اليوم الممطـر ، منذ أكثر مـن عشرين عاما . ينتهـي من خدمة الزبـائن الآخرين فلا يبقى أحـد غيري . ينظر نحوي باستنكار وأنا أعاود تذكيره بالطلب الذي طلبتـه ، ومتأففا يرمي أمامي الكأس ويلتقط من يدي النقود التي قدمتها له . ينهمك في غسل الأكواب ، ومسحها بالفوطة ، وهـو يخاطب زبونا آخر من أبناء جلدتـه ، تصادف أن كان بجواري يحتسي كأسه ، قائلا له :

«لماذا يجب أن نخـدم هـذه النفـايـات البشريـة» . يقـولها دون أن يلتفـت نحوي ، ولكنني أعرف لحظتها أنه لايقصد أحدا سواي بتلك الكلمات المهينة ، المنقوعـة في عطن الحقد والعنصريـة . أتظاهـر بأنني لم أسمعـه ، وأقبض على كأسي بأصابع متشنجة ، وأنا أحاول أن أسيطر على انفعالي . ثم أفرغ الكأس في جـوفي وأغـادر الحانة على الفـور . يستيقـظ المشهـد الآن بكاملـه في ذاكـرتي ، وتستيقـظ معه أمـراض القرحـة التي ابتلتنـي بها مشاهـد الظلم والأذى التـي تلاحقني . أحس بالألم والمهانة ، فأقول لنفسي ، لماذا كنت جبانا إلى هذا الحد . لماذا بقيت صامتا ، وصبرت على إهانته وانسحبت من أمامه دون أن أرد عليه . لماذا لم أصفعه . أبصق في وجهه . أرميـه بالكأس حتى تتحطم عويناتـه الطبية فـوق أنفه ، قـائلا لـه ، انظر إلى وجهـك في المرآة أيها الوغـد لتعـرف أين هـي النفايـات البشرية ، ومن منا يعيـش على حساب الآخر ، أنت أم أنـا . انظر إلى السـلالات التي أنجبتـك لتعرف مـن منا كـان نفايـة بشرية يعيـش على أذى الآخرين ، أنا أم أنت؟ .

انتبه إلى أنني دحلت في مرافعة تاريخية، قانونية، تدين سلوكه وسلوك أسلافه. مرافعة جاءت متأخرة عن ميعادها عشرين عاما. وأسأل نفسي لماذا غابت هذه الفصاحة لحظة احتياجي إليها، وكيف يمكن أن أعثر علي آلة الزمان، التي تعيدني إلى تلك اللحظة وذلك المكان، لأنصف نفسي، وبني جسي، من عنصرية رجل يشتغل جرسونا في إحدى الحانات.

يأبي المشهد أن يغادر ذهني، حتى وأنا أدخل المتجر واشتري اللعبة وأغادر السوق. أحس بالإعياء، فأبحث عن كرسي فارغ أريح فوقه جسمي، وأنعشه بفنجان من شراب ساخن.

تلوح لي عبر جدار المقهى الزجاجي، طاولة فارغة، فأقصدها ومعي لعبة الصغير. أضع اللعبة فوق الطاولة، وأفض عنها الغطاء والأشرطة، وأخرجها من علبتها، وأحاول أن أتسلى بها، علها تطرد الضيق الذي يملأ صدري لابد أن الولد سيفرح بها، فهي لعبة حديثة، من هذه الألعاب الألكترونية التي صارت تستقطب اهتمام الصغار. تشبه آلة حاسبة بحجم الكف، وقد حلت مكان اللوحة التي تحمل الأرقام، شاشة يظهر عليها رجال يتحاربون. تستغرقني اللعبة وأنا أحاول أن أفك رموزها. لأكتشف أنها معركة بين العساكر وأحد اللصوص، والفوز معقود لمن يجعل اللص يهرب مس شباك ورصاص العساكر. «هاهم يلقنون أطفالنا درسا تربويا بديعا، يليق بمعاملات الناس في هذا الزمان» قلت لنفسي، وأنا أضع عقلي وقلبي في خدمة هذا اللص، وأحاول أن أهرب به من هذه الكمائن الكثيرة التي ينصبها له رجال الشرطة. اندمج في اللعب، فلا أنتبه إلى الجرسون الذي اخترق زحام الموائد، وجاء يقف بمحاذاتي. أسمعه يخرج صوتا لامعنى له، فأحس بالحرج وهو يراقبني ألعب بحماس مثل الأطفال. وبلهجة مهذبة، أسأله أن يحضر لي قهوة بالحليب. يهمهم بكلمات مضغومة بها نبرة احتجاج، فأظن أن احتجاجه جاء من طبيعة

هذا الطلب الذي يريده أن يمزج القهـوة بالحليب، فهو يضاعف العمل دون أن يضاعف الأجر، ولكـن ماذا أستطيع أن أقول له، إنني أحـب القهوة، وما الحليب إلا حيلـة ألجأ إليها عندما أغلـف به القهوة، لأخـدع الجروح والقروح التي تملأ المعدة لكي لاتثور وتغضب عند وصول القهوة إليها. ولكنني قبل أن أرد عليه مبررا هذا الطلب، أسمعه يقول بلهجة صارمة:

ـ ألم تقرأ اللافتة.

عن أي لافتـة يتكلم. لعلهـم لايبيعون القهـوة. ولكن الآلـة التي تصنـع القهوة، والعامـل الذي يقوم بإعدادهـا، كلاهما موجود خلـف ذلك الحاجز الخشبي. وهـاهم اناس حـولي يشربونها، فما سر هـذا الحديث الغامـض عن لافتة لاوجود لها. يتفضل الجرسون بشرح جملته الغامضة قائلا:

ـ يمكنك أن تبحـث عن القهوة والحليب في مكان آخر. أمـا هنا، فنحن نخصص هذه الساعة، لتقديم وجبة الغداء.

يقول جملتـه ويهرول لاستقبال زبـائن دخلوا المقهـي، ووقفوا بجـوار الباب يبحثون عن مكان للجلوس. يفاجئني منظره وهو يقودهم إلى طاولتي، ويشير بيده كأنه يطردني. لايسعفني الوقـت حتى أعيد اللعبة إلى الصندوق، أو أعيد تغليفها بـالورق والأشرطة الملـونة. كان العسـاكر يطاردون اللـص، ويصلون إليه، ويمزقون جسمه بالرصـاص، وهو يصدر أنينا موجعا، دون أن أستطيع إنقاذه.

أضـم إلى صـدري كومـة الورق والأشرطـة، وأطبق بـأصابـع متشنجة على اللعبة، وأنسحـب وأنا أكتـم غيظي. لكـي لا أثير مزيـدا من الفضـول لدى زبائن المقهي الـذين ينظرون بإشفـاق نحوي. أصل إلى الشارع، وأقـف أنظر بأسف وأسى إلى طاولتي التي أجلاني عنها الجرسون الذي امتزجت صورته الآن

بصورة الجرسون ذي اللحية الحمراء، الذي أيقظته الذاكرة وجعلته يلح على ذهني وأنا أدخل المقهى فأدرك أن ذاكرتي لم تفعل ذلك عبثا. إنها لم تخرج جرسون الأمس من تابوته المدفون في قاعها المظلم، إلا لكي تنذرني بما سيفعله معي جرسون اليوم. وإنني لأتساءل الآن، ترى كم عاما سوف يمضي، قبل أن يعود مشهد اليوم إلى ذاكرتي وأجد أن السنين قد منحتني لسانا فصيحا أتكلم به وأستخدمه في الدفاع عن حقي، ومنحتني يدا قوية أصفع بها وجه هذا الجرسون الذي أهانني وسط حشد هائل من زبائن المقهى.

العقاب

أفزعني وأنا أتجول في مركز المدينة، وأمشي متمهلا فوق أرصفة الشوارع الكبيرة العامرة بالمتاجر والمقاهي والبشر، أنني لا أهتدي إلى انسان واحد أعرفه.

كنت قد تركت منزلي مبكرا، لأن زوجتي كانت تستقبل بعض زائراتها، واخترت قبل أن أذهب إلى مكتبي، كما أفعل كل مساء، أن أمضي الي مركز المدينة واستعيد بعض ذكرياتي مع من ألقاه صدفة من أصدقائي الذين أدمنوا الجلوس في المقاهي.

سرت تائها وسط هذه الوجوه الغريبة التي لا أدري من أين جاءت، وكيف امتلأت بها شوارع المدينة في غفلة مني، فهي مدينتي التي لا أعرف مدينة سواها، ولدت في بيت من بيوتها القديمة التي تجاور البحر، وذهبت صغيرا إلى مدارسها، ولعبت كرة الخيش في حواريها، وغذيت أوهام الحب أيام الصبا، من أضواء شرفاتها ونوافذها، وأهرقت أيام الشباب فوق أرصفتها، وتعلمت تدخين السجائر والثرثرة في السياسة في مقاهيها، يحيط بي الأصدقاء، أينما ذهبت، فكيف وأنا على مشارف الخمسين من عمري الذي أعطيته لها، إجد نفسي غريبا في شوارعها، كأنني أدخل مدينة لم أرها ولم ترني إلا هذا اليوم.

ومن ميدان الشهداء إلى ميدان الجزائر، عائدا عبر كورنيش البحر إلى الجزء القديم من المدينة، حيث ميدان الساعة، وسوق الحلقة، وسوق الترك، وباب

الحرية، وشارع الرشيد، ثم عائدا عبر شارع عمر المختار إلى ميدان الشهداء مرة ثانية، أمرق من شارع إلى شارع، وأقف أمام المقاهي أتصفح وجوه الجالسين فلا أجد أحدا أعرفه. كيف حدث هذا؟ ولماذا؟ وما هو السر الذي أفرغ المدينة من كل سكانها الذين أعرفهم. تذكرت أنني شخصيا لم أقم بمثل هذه الجولة في مركز المدينة، منذ أكثر من عامين، ومع أنني أسكن حيا محاذيا لهذا المركز هو حي المنشية، إلا أنني لا أكاد أجد وقتا لمثل هذا التسكع الجميل، الذي كان عادة يومية في أول مراحل الشباب. مكتبي بمركز البحوث التاريخية، الذي كان يأكل ساعات الصباح، صار الآن يستولى على كل ساعات المساء، بعد أن صرت رئيسا لقسم الوثائق بهذا المركز. وما تبقى من فراغ، فهو محل صراع لاينتهي بين الواجبات العائلية والمنزلية، وبين مهمات علمية خارج المركز، فلماذا استغرب، إذا كان أصدقائي هم أيضا، مشغولون مثلي بمسئولياتهم العملية والعائلية، التي تمنعهم من ترف التسكع في الشوارع والجلوس في المقاهي. ثم لماذا أنسى، أن مدينة طرابلس، لم تعد تلك المدينة التي لاتضم سوى أهلها، كما عرفتها أيام الطفولة والصبا. لقد كبرت، وتضخمت وارتدت أقنعة المدن الكبيرة التي لاتظهر عواطفها للناس. خاطبت نفسي بمثل هذا الكلام، باحثا عن اعذار لمدينتي التي تعاملني هذا المساء معاملة الغرباء.

تذكرت أنني أعرف صديقا قديما يملك دكانًا في سوق المشغولات اليدوية، فذهبت مسرعا إلى هناك أبحث عنه، فلاشك أن وجوده سوف يخفف قليلا من وطأة هذا القلق الذي أشعر به. كان سوقا صغيرا، مسقوفا، به حلقة من دكاكين أصحاب الحرف اليدوية، وتجار الهدايا التذكارية كان بعضهم قد أخرج طاولة أمام دكانه ووقف يستخدم مطرقة وينقش أشكالا تقليدية فوق صحون الفضة والنحاس التي يبيعها للسواح. لم أستطع أن أهتدي إلى دكان صاحبي، وتفحصت وجوه أصحاب الدكاكين فلم أعثر عليه بينهم، لكن

الجو العامر بالزحام وصخب النقاشين، أنساني خيبة أملي في العثور عليه. فصرت أتنقل من دكان إلى آخر، أتفرج على المعروضات وأقف قليلا أمام هؤلاء الفنانين الشعبيين أتأمل الغزلان والأهلة والأسماك والطيور والزهور التي يرسمونها فوق الصحاف، دون أن أنسى المهمة التي جئت من أجلها، وهي العثور على إنسان أعرفه، يطرد من قلبي هذا الفزع الذي أصابني وأنا أجد نفسي غريبا في مدينتي. وانتبهت فجأة إلى أن الطرقات التي كانت تملأ فضاء السوق، قد بدأت تخفت تدريجيا ولم أعرف سببا لذلك، إلا عندما أجلت بصري بين أصحاب المطارق، فوجدتهم يمدون أعناقهم وأبصارهم باتجاه نقطة محددة في منتصف السوق، حيث تنتصب قاعدة رخامية أقاموا فوقها معرضا لمشغولاتهم، وأمام تلك القاعدة، وقفت امرأة تتفرج على المعروضات، هي التي أثارت اهتمامهم. أصابني ما أصابهم من ذهول، فقد كانت المرأة من ذلك النوع الذي لانلتقي به إلا نادرا في الحياة. قد نراه طيفا على الشاشة، وقد نرى صورته على أغلفة المجلات الملونة، أما أن نراه يخطر أمامنا، كائنًا مفعما بالحيوية والحياة، يمشي ويتحرك ويقف بقربنا، فهذا ماكان يستحق أكثر من مجرد وقفة ذهول، إنه يستحق أن ينخرط الجميع في السجود شكرا لله الذي أبدع هذا الجمال وأرسله إليهم. كان أول سؤال خطر علي ذهني، هو، هل ينتمي هذا الجمال إلى هذه البيئة؟ هل هي حقا امرأة ليبية؟ إنه مكان يضج بالسائحين والسائحات من زبائن الهدايا التذكارية. ولكنني أراهن على أنها امرأة ليبية؟ لن يخدعني هذا الزي الذي ترتديه والذي بدا بأناقته وانسجام ألوانه، وجمال المساحات الفارغة التي يتركها لإظهار مفاتن الجسد في منطقة العنق والصدر والكتفين، وكأنه ينتمي إلى أرقى بيوت الأزياء الفرنسية، ولن يخدعني هذا الشعر الناعم السواد الذي صنعت منه تاجا، وزينته بمشابك الذهب وتركت سباسب منه تسقط فوق الجبين والخدين، لتظهر التباين الجميل بين سواده ونقاء بشرتها فبدت وكأنها أميرة جاءت من مدن الأساطير،

لـن يخدعني مـابدا في مظهـرهـا الخارجي ، مـن ارتفـاع عن مـوروثات البيئـة المحلية ، فأهمل رؤية ذلك الشـئ الذي ينتمي انتماء حميما إلى هذه الأرض وهذه البيئة ، والذي يظهـر جليا في جمال وسواد عينيها ، وكأنهما استعـارا هذا السواد وهـذا الجمال ، من عينـي أجمل الغـزالات في الصحـراء الليبية ويظهـر في لـون بشرتها ، ذلك اللـون الذي يشبه السهوب الـرملية التي انعكست عليهـا أشعة شمس آخر النهار ، وتظهر أيضا في استدارة هذه الوجه القمري ، وشدة صفائه ونقائه ، متفقا مع مقومات الجمال كما يحددها الموروث الشعبي . ثم هناك شئ آخر ، أبعد من أن يحيط به الوصف الخارجي ، لأنه يتصل بتلك الدبدبات التي نتلقاها من إنسان تغذى بشمس وهـواء ذات البلاد التي تجمعنا ، والتي تمنحنا شفرة سريـة ، نستخدمهـا في الاهتداء إلى أبناء وبنـات بيئتنا . وقفـت ذاهلا ، أتأملها ، وأشكر الله أن كافأ رحلتي إلى مـركز المدينة بما رافقها من قلق وعناء ، هذه المكافأة السخية التي لم أكن أنتظرهـا ، فهاهو ا لوجه المألوف الذي أردت أن أراه ، يتخذ شكـلا جديـدا وغير مألـوف ، ولكنه عـامر بعنـاصر الدهشـة والإبهار ، يتخـذ شكل امـرأة ليبيـة ، نـزعت عـن وجههـا الأغلفـة القديمـة ، وخرجـت إلى الشمس والهواء ، وهي تتألـق جمالا وفتنة وكبرياء . ولعـل ليبيتها هذه ، هـي التي جعلتني أنفعـل بجمالها أكثر من انفعـالي بكل من رأيـت من جميلات الدنيـا أثناء سياحاتي بـالخارج ، لأنه جمال يخاطبني بلهجتـي المحلية ويتجه إلى مراكز الحس والذاكرة ، فيثير كل العواطف والإنفعالات التي أنبتتها هذه البيئـة في نفسي . ولو كان عمري قـريبا من عمـرها وكنت شابـا أعزب لم أتزوج بعـد ، لدخلت أعتـى المعارك من أجـل الفوز بها . ولكن قطـار العمر مضي بعيدا عـن أية محطـة تتيح لقاء بينـي وبينها ولم يبـق أمامـي إلا أن أطوي حسرتي في قلبي ، واكتفي بنعمة النظر إليهـا والارتواء من جمال عينيها ، دون أن أمد بصري وفكري إلى أبعد من ذلك .

كان أصحاب الدكاكين قد عادوا لاستخـدام مطارقهم ، ونقش رسومهم ،

بعد أن أرضوا فضولهم، واستوعبوا صدمة الالتقاء بهذا الجمال. عاد السوق إلى صخبه وواصلت أنا الاستمتاع بصخب آخر تضج به الدماء في عروقي. إنها امرأة بعيدة المنال فلا أقل من أن أحتفظ بصورتها في ذاكرتي، لكي أستحضرها واتدفأ بنار فتنتها في ليالي الشتاء. سأتأملها جزءا جزءا، وأحتسي جمالها جرعة جرعة، الشعر والجبين والحاجبين، الرموش والعينين والخدين، الأنف والشفتين، العنق والنهدين، الخصر والأرداف والساقين، كل ذلك في رداء جميل من الشموخ والكبرياء، فمن أي مكان من هذه المواقع، تنطلق السهام التي تخترق القلب؟ ومن أين لخراط البنات، كل هذه المهارة، ليضع كل هذه الفتنة في جسد امرأة واحدة؟ وكم كأسا شربت من خمر هذا الجمال، حتى تخدر جسمي بالنشوة والثمالة؟ وكأنها انتبهت لنظراتي، فرفعت رأسها وشيعت رموشها، تنظر نحوي. اصطدمت نظراتي بنظراتها، فأزحت بصري عنها مرغماً وكأنني أخشى أن تعاقبني، لأنها أمسكت بي متلبسا بالنظر إليها. ولدهشتي الشديدة، رأيت المرأة تتحرك من مكانها، وتتجه نحوي. كنت قد أدرت بصري إلى الناحية الأخرى، ولكن طرفا منه، كان يستطيع أن يلتقط صورتها وهي تسير باتجاهي، بإيقاع منتظم يعزفه كعب حذائها العالي. اعتقدت، عندما اقتربت مني، أنها سوف تتجاوزني وتمضي إلى صاحب الدكان الذي أقف قريبا منه، ولكنها وقفت أمامي فأدرت لها وجها أذهلته المفاجأة، لأنها وضعت رموشها سهاما في صدري، واحتوتني بابتسامة أضاءت الدنيا من حولي، وبسطت يدها لتحيتي فوضعت يدي في يدها وكأنني لا ألمس يدا، وإنما أتواصل مع جذور الفرح وعناصر الجمال في الكون كله. وانفرج الفم البهيج عن أولى الكلمات التي قالتها:

ـ فرصة سعيدة أستاذ حامد.

ولا أدري ما الذي شعر به ذلك الشحات الذي جاء غريبا إلى مدينة من

مدن ألف ليلة وليلة ووقف وسط جمهور حاشد يشاهد موكب الأمير عندما رأى الموكب يتـوقف، ورأى الأمير يهبط مـن محفته ويتجه إليـه يأخذه بـالأحضان. ولكنني لم أكن أقـل استثارة ودهشة منه، وأنا أرى هذه المرأة التـي تأتي لتحيتي وسط ذهـول أصحاب الدكـاكين وزبائن السـوق. ترى من تكـون هذه المرأة؟ وكيف عـرفتني؟ ولماذا جاءت لتحيتـي؟ إنني لست شخصيـة عامة يقصـدها المعجبون ويطلبون التعرف إليها، ولا أذكر أنني التقيت في حياتي بامرأة مثلها. بدا واضحا أنها تعـرفني معرفة حميمة، فكيف أستطيـع أن أغفر لنفسي أنني لا أعرف أيـن ومتى وكيـف التقيت بهذه الأنثى السـاحرة. أضـافت هـي حطبا جديدا إلي مواقد النار التي أضرمت سعيرها في صدري.

ـ ألا تذكرني؟

يالفجيعتي ما أعظمهـا. إنني فعلا لا أذكرها، لأنني لاأذكـر أنني التقيت بامـرأة لها مثل جمالها، الـذي أبهجني وعـذبني منـذ أول لحظة. رأتنـي واجما، ذاهلا، لا أقدر علي النطق فأضافت:

ـ ألا تـذكر تلـك الطفلة التـي أحبتك وأحببتهـا، وصنعت لها أول وآخـر لحظة مجد وتألق في حياتها.

وقبل أن أستوعب هذا الكلام المبهر، من الحب والمجد والتألق، الذي جمع بيني وبينهـا في أزمنة سالفـة، وجدتها، ووسط هـذا الحشد من البشر الـذين يضمهم السوق، تغني بصوت هامس ضاحك:

نحن زهور حدائقـهـا

نحن الحنـة في يدهـا

نحن القـرط بأذنيـها

نحن بنات مدينتـنا

ثم توقفت عن الغناء لتقول :

ـ هل عرفتني الآن يا أستاذ حامد ؟

ولا أدري كيف استنفرت الصدمة كل مـداركي ، وجعلتني أستعيد شريط حياتي كله في برهة خـاطفة ، وأتوقف عند اللحظة التي عرفـت فيها هذه الفتاة وهي طفلة ، فإذا بها واضحة بكل تفاصيلها في ذهني ، وكأنها لم تحدث إلا منذ أيام قليلة ، وإذا بي أهتف باسمها :

ـ خديجة .

أعدت الاسم مرة أخرى ، وأنا لا أكاد أصدق أنني عثرت عليه وسط مخازن الذاكرة المليئة بأكداس المهملات . قلت من خلال أنفاسي اللاهثة :

ـ كيف لي أن أعرفك بعد كل ماحدث لتلك الطفلة من تحولات .

ـ أما أنت فما زلت ، ماشاء الله ، كما أنت ، منذ تلك الأيام .

كنت في بـداية التحـاقي بـالوظيفـة مشرفا على النشـاط المدرسي ، وكانـت خـديجة في أولى مراحـل التعليم ، في عـامهـا السادس أو الســابع ، أعجبنـي نشاطها وحيويتهـا فأخذتها لتقديم فقرة غنائيـة في إحدى الحفلات المدرسية . دربتها على الغناء وأداء الحركات التعبيرية ، فلاقت عندما ظهرت علي المسرح ، استحسان المتفـرجين ، ونشرت إحدى الصحف الطـلابية صـورتها ، واسمتها «الطفلـة المعجزة» ولكـن والـدها لم يعجبـه اشتراكهـا في الحفل ، واعتبر أمهـا مسئولة عـن ظهور ابنتها أمام الناس تـرقص وتغني فكان ذلـك سبب خصام بينهما أدى إلى الطلاق . أهملـت هذه التفصيلـة التي لم أعـرفها إلا بعـد فوات الأوان ، وأردت استحضار تلك اللحظات المبهجة عنـدما كنا نلتقي في رحاب الفن الجميل .

ـ هـاهي الطفلة المعجزة تعـود إلي الظهور من جـديد، فياها من مفـاجأة سعيدة.

أخبرتني إنها تـركت التعليـم منذ ذلك الـوقت، ولكنهـا استطاعـت وهي داخل البيت أن تتعلم من أمها مهنة الخياطة حتى أتقنتها وصارت تكسب منها أضعاف مايكسبه خريجو الجامعات.

ـ الفضـل لك أنت فلولا تلـك الحفلة، لواصلت تعليمي، وانضممت إلى طوابير العاطلين من خريجي الجامعات.

أقلقني أنها تحملنـي مسئولية انقطـاعها عـن التعليم، وتسمي هـذا الإثم فضلا. لقـد كان الحفل، كـارثة بالنسبـة لها، فهو السبب وراء انهيـار حياتها العائلية ولابد أنها قاست كثيرا وهي تعيش حيـاة خالية من الأمان، محرومة من التعليم، فهـل تراهـا، ستنسب لي كـل هذه الأفضـال. لم أشأ أن أدافـع عن نفسي، أو أتوقف عند هذه القصة التي تجلب الكدر. مضيت بسرعة أنقل لها سعادتي بلقائها وإعجابي بجمالها قائلا:

ـ لقـد كنت نجمة منـذ أيام الطفولـة، وهأنـا اليوم أراك تتألقين بشبـابك وجمالك مثل النجوم.

أسبلـت رموشهـا حيـاء، في حين ذهب تفكيري للبحـث عـن طريقـة لا تحرجها، أبدي بها استعدادي لخدمتها إذا أرادت عونا ومساعدة. رأيتها تلتفت باتجاه امـرأة تقف أمـام أحد الدكـاكين لم أتبين ملامحهـا، وتقول بـأنها جاءت بصحبتها إلي السـوق، فهي صـديقة لها تصنـع بعض المشغـولات اليدويـة في بيتها، وتعطيهـا لمتجر يبيعها لها. كـانت المرأة تنتظرها فمـدت يدها مـودعة. أخذت يدهـا أبقيها قليلا في يدي لكـي أطيل عمر هذه اللحظـات المبهجة، متمنيا أن أراها مـرة أخرى. ذهبت لكي تلتحق بصديقتهـا، وشيعتها بنظراتي وهي تبتعد، حتى توارت خلف بوابة السوق.

وقفت قليلا أحدق في الفراغ الذي تركته خديجة، فرأيت وسط الفراغ طيفا شفافا يحمل شكل قوامها وملامح وجهها. لم يفزعني الطيف، فأنا أعرف أنه نوع من خداع البصر، الذي جاء نتيجة الإجهاد والتركيز الشديد عندما كنت أنظر إليها. أغمضت عيني أحاول أن أطرد طيفها من بصري وذاكرتي، ورجعت مسرعا إلى بيتي، وإلى غرفة مكتبي أحتمي بها من سطوة هذا الطيف، ولا أدري كيف أن عطبا حدث للعصب البصري بحيث صار يعيد إنتاج ذلك الطيف حتى وأنا أتصفح كتبي وكراريسي. أهملت الموضوع، فهو شئ طارئ سينتهي حال أن أذهب إلى النوم. ووجدت أنه فعلا قد انتهي أثناء ذلك، كما اختفى في صباح اليوم التالي وأنا أذهب إلى عملي، وأنهمك في الروتين اليومي للمركز، أناقش الباحثين وأراجع معهم الوثائق والبحوث. ولا أدري لماذا عندما جاء المساء وعدت إلى المركز أواصل عملا يتصل بأبحاثي الخاصة، بعيدا عن زحمة المراجعين والعاملين، وجدت أن طيف خديجة قد عاد إلى الظهور مرة أخرى. رأيت طيفها باسما كأنها تناديني وتهمس لي بتلك الكلمات التي أطربتني عندما سمعتها بالأمس :

ـ تلك الطفلة التي أحبتك وأحببتها.

لعل هذا هو الحب قلت في نفسي. لعلني حقا أحببتها من حيث لا أدري، وإلا ما الذي يجعلني مشغولا بها، لا أستطيع أن أرى، كلما خلوت إلى نفسي، إلا طيفها. ترى أي حب هذا الذي يمكن أن يجمعني بفتاة تصغرني أكثر من عشرين عاما وأنا الذي لم يعرف الحب إلا أوهاما أيام الصبا، أو أغنيات يسمعها في المذياع أو قصصا يقرأها للتسلية، والذي رتب حياته بعيدا عن هذا الترف الذي لايليق إلا باللاهين واللاعبين، لا بالرجال الذين كرسوا حياتهم للعلم أمثالي.

ثم كيف يمكن للقاء قصير، عابر، لم يدم أكثر من خمس دقائق، أن يوقد شعلة الحب، في قلب يغطيه رماد السنين.

حقا، لقـد بهرني جمالها، وتمنيت لو أننـي رجعت شـابا، يضاهـي عمري عمرهـا، لأنني كنـت أعرف أنها مـن نصيب رجـل آخر، ينتمـي إلى جيلها، ويتكافأ عمـره مع عمرها، ووسـامته مع جمالها، ولكن هـل يخضع الحب لمثل هذه الاعتبارات؟ وهل يقيم وزنا لمثل هذا التفكير المنطقي؟

حاولت أن أواصـل عملي، ولكن طيفها، أرغمني على أن أتـرك المكتب، وأتجه إلى سيارتي أقودها على عجل باتجاه مركـز المدينة. أوقفتها في مكان قريب من سوق المشغولات اليدوية، ودخلت مسرعا إلى هناك، أترقب قدومها.

ولأنـنـي لا أعرف مكـانـا آخر أذهـب إليـه بحثا عنهـا، فقـد صار سـوق المشغولات اليدويـة، هو المكان الوحيد الـذي أقصده كل يوم بـأمل أن ألتقي بها.

كان طيفها لايختفي إلا ليعود مـن جديد بمجرد أن أختلي بنفسي، ولم يكن لذلـك كله، سوى تفسير واحـد، وهو أننـي وقعت أسير هذه الأنثـى، التي رمت شباكها حـولي، وتركت طيفها يلاحقني، ومعتني بـأن أنشغل بأي شئ آخر سواها.

لم أعد قادرا علي مواصلة القراءة والكتابة، لأنني ما أن أفتح كتابا حتي أرى صورتها تطفو فوق الكلمات، كما لم أعد قـادرا على إنجاز عمل المركز، لأن كل ملكـات الفهـم والإدراك صـارت مشغولـة بها، تبحـث عن وسيلـة للتواصـل معها. فحياتي لم تعد تعرف إلا هدفا واحـدا هو أن ألتقي بخديجة مرة أخرى. ولا أدري لماذا تصورت أن هـذا اللقاء سـوف يضع حـدا لأوجاع القلـب التي أحس بها، ويخرجني من حالة القلق والذهول التي أصابتني. موقنا بأنها ما أن تراني، وتعرف حالتي حتي تدرك أنه لا إنسان في الدنيا يمكن أن يحبها بمثل ما أحببتها. إنني الآن فقط أدركت، أن ماحدث لي ليس حبا طارئا، عابرا، جاء نتيجة التقائي بها وهي في تمام نضجها وأنوثتها، وإنما عاطفة ادخرها لها منذ أن

عرفتها في مراحل عمرها الأول، ثم نمت هذه العاطفة واكتسبت لونا جديدًا، خلال سنوات الصمت والقطيعة، ولم يكن حبي لها ينتظر إلا لقاء عابرا مثل ذلك اللقاء، ليتفجر كما يتفجر البرق عند تصادم السحب العامرة ببشائر الغيث والخصوبة.

داومت على الذهاب إلى السوق كل مساء، وذهبت ذات يوم في مغامرة للبحث عن اسمها في دفاتر المدرسة القديمة التي شهدت أول تعارف بيننا، علني أعثر على أثر يدلني على عنوانها، فوجدت أن المدرسة قد أزيلت، وحلت مكانها عمارات سكنية. عدت إلى الاحتماء بالسوق، الذي كنت أصل إليه أحيانا قبل أن تفتح الدكاكين أبوابها فأقضي ساعات الانتظار متجولا في الشوارع المحاذية. لم أعد أبحث عن أحد يعرفني أو أعرفه، وعندما يصادفني في الطريق وجه مألوف كنت أدير وجهي إلى الناحية الأخرى، لكي لا يراني، لأنني لا أملك وقتا ولا فكرا لصحبة الناس. ثم مالبثت هذه الزيارات المسائية للسوق، أن صارت صباحية أيضا، فقد خشيت أن تأتي في الصباح وتضيع فرصتي في الالتقاء بها.

أصبحت بعد مضي أيام قليلة، وجها معروفا لدى أصحاب الدكاكين، الذين اعتبروني جميعا محباً لفنونهم وصناعاتهم اليدوية، واستخدمت أسلوبا ذكيا في البحث عن خديجة، فقد كنت أشتري بعض مقتنياتهم، وأسألهم أثناء الشراء، إن كانت هذه المروحة المصنوعة من سعف النخيل، أو هذه المحفظة الجديدة الحافلة بالنقوش أو هذا الصحن الفضي الملئ بالأسماك المرسومة، من شغل امرأة رأيتها تأتي إلى السوق وتقدم معروضاتها للدكاكين، فكانوا يسألونني عن اسمها، أو يطلبون مني وصفا لها، لأن نساء كثيرات يقمن بهذا العمل. فكنت أخبرهم، بأنني لا أعرفها وإنما أعرف فتاة بالغة الجمال تأتي بصحبتها اسمها خديجة. لم يستطع أحد منهم أن يدلني عليها ولكنهم عرفوا جميعا أن سبب مجيئي إلى السوق هو البحث عن صبية ذات ملاحة وبهاء اسمها خديجة.

وأبدوا تعاطفا جميلا مع قضيتي، وصاروا يسألون كل امرأة تأتي بمشغولاتها إلى السوق عما إذا كان لها صديقة اسمها خديجة، يفعلون ذلك أمامي ويطمئنوني بأنه لن تمضي سوى بضعة أيام حتي يهتدون إليها. ولكن خديجة لاتأتي، وكأنها اتخذت قرارا بأن تحجب نفسها عني، وتتركني أتعذب وحيدا مع طيفها.

طالت مدة غيابي عن المركز، وجاء زملاء العمل ورائي إلى السوق، يريدون إقناعي بالعودة إلي العمل، وعرفوا هم أيضا، مايعرفه أهل السوق، من أنني أنتظر فتاة اسمها خديجة، فحاولوا معاونتي في العثور عليها، وجاء بعضهم يخبرني بأن هناك غانية يتناقل الناس أخبارها، ويتحدثون عن جمالها، وتتطابق أوصافها مع أوصاف المرأة التي أبحث عنها، كما يتطابق اسم هذه المرأة السيئة السمعة مع اسمها، فاشتبكت في عراك معهم، ورفضت أن ألتقي بهم، أو أتحدث إليهم بعد ذلك. كما جاءني من أهل السوق من يعيد ذات الكلام، ويؤكد لي بأن خديجة التي أنتظرها ليست إلا امرأة تبيع جمالها لزبائن المتعة، فكنت أرفض الاستماع إليه، لأنه لايقول إلا كذبا، فلا يمكن أن تكون تلك الطفلة البريئة الجميلة، التي أحببتها وأحبتني قد أوصلتها تلك الحفلة المشئومة، إلى هذا السقوط الفاجع المروع.

وصدر بعد شهر أو أكثر من غيابي، قرار بإعفائي من العمل، فحررني ذلك من إلحاح وملاحقة الزملاء.

ولم يكن غريباً أن تعرف امرأتي السبب الذي جعلني أغيب عن البيت طوال ساعات النهار، فتطلب الطلاق وحضانة الأطفال وملكية المنزل. وتحقق لها ما أرادت، وتحررت من أعباء الأسرة، كما تحررت من أعباء العمل وصار بإمكاني الآن أن أختصر متاعب الذهاب إلى البيت والعودة منه. هناك ركن هادئ في مدخل السوق، يجاور نافورة جميلة، ولن أجد مكانا أتخذه سكنا أفضل من هذا المكان. وجاء أهل الفضل ممن يعرفون قصتي، يبنون لي كشكا هناك،

عندما رأوني أنام في العراء ويعتبرونني حارسا ليليا لهذا السوق يستحق أجرا نظير قيامه بهذا العمل فأعفاني ذلك من مشقة البقاء واقفاً طوال اليوم وصار بإمكاني أن أجلس أمام السوق أراقب الداخلين والخارجين .

مضت الآن سنوات وأنا أقيم بهذا الكشك ، وأتكوم كل يوم فوق الرصيف أتلقى نظرات الإشفاق والأسى ، وأسأل نفسي لماذا أنا هنا ، وما الذي أخرجني من بيتي وعملي وحولني إلي حطام مهمل ، لإنسان يعيش علي هامش الحياة ، فأذكر أن ذلك كله كان بسبب امرأة ، لم أعد أذكر اسمها ، فقد توارت ذكراها في صدري واختفى طيفها من حياتي ، وما عدت قادرا علي أن أذكر ملامح وجهها حتى لو وقفت الآن أمامي . هل كان اسمها خديجة؟ ربما ، فلم يعد ذلك مهما الآن . لقد حققت تلك الفتاة انتقامها ، وأنزلت عقابا صارما بالرجل الذي هدم حياتها ثم انتهت مهمتها بمجرد أن أوصلتني إلى قاع هذا الجب .

صفحة فارغة

الدعـــابة

كان مـاحدث أكبر من أن تصـدقه عقولهم . لكنـه حدث . وها هـم أمام الكارثة التي انتهى بها يوم الاجازة

بدأ كـل شئ بدعـابة من دعـابات رضوان ، التـي أصبحت جزءا مـن يوم عطلتهم الاسبوعية . يلتقي الأصدقاء الخمسـة منذ الصباح وقد أعدوا أنفسهم للنزهـة ، وهيأوا لها ماتحتـاجه من تموين . ثـم يستقلون سيارة رضـوان إلى هذه المزرعة التي أتاح لهم صاحبها فرصة المجئ إليها كل أسبوع . يتنزهون قليلا بين أشجـارها وجـداولها ويلعبون الكـرة في طرف منهـا ، بعيدا عـن الزرع . وتـأتي الظهيرة ، فيعدون طعامهم ، ويقضون فترة القيلولة في غرفة الضيافة ، يتسامرون ويلعبون الورق إلى أن ينتهي النهار.

يفعلون ذلـك كل أسبـوع ، كسراً للروتين ، وتجديداً للحيـاة الوظيفيـة التي جمعتهم في مكتب واحد .

دعابة رضـوان هذا اليوم كانـت تقيلة ، أزعجتهم كثيرا وحرمتهـم من أكلة كانوا يشتهونها ، فقرروا عقابه بدعابة يكون هو ضحيتها هذه المرة .

كانت مفاجأة النزهة لهذا اليوم ، أنهم عثروا علي جزار يبيع لحم الإبل ، التي صار لحمهـا نادرا في السوق بعد أن أمحلـت البادية من رجـالها وجمالها . وما أن أكملـوا نزهتهـم بين الأشجار، والتقطـوا من حبـات الطماطم وجـذور الخس مـايكفي لصنع أطبـاق السلطة ، وأعيـاهـم الجري وراء الكـرة ، حتى عـادوا

يجتمعون في موقع قريب من غرفة الضيافة ويتعاونون في طهي ماجلبوه من لحم الإبل.

كان رضوان أكثرهم نشاطا ومهارة في إعـداد الطعام، وأكثرهم حديثا عنه، يترجرج جسمـه البدين وهو يجمـع الأحطاب ويشعل النار، وينفخهـا بأوداج كثيرة الإحمرار، ثـم يمسح دمـوعه من أثر الـدخان، مبديا أسفـه لغدر الإنسان ولؤمه بدليل أنهم الآن يطهون لحم حيوان كـريم نبيل، أسدى أعظم الخدمات لقاطني هذه البيئة الصحراوية، وهاهم يكـافئون خدماته الجليلة بنحره وأكل لحمه. وبالـغ في استنكار هذا الفعل، والشـؤم الذي سيحلق بمن يـأكل لحم الإبل، حتى ظن رفاقه أن نفسه سوف تأبى أن تشارك في وليمة الجمل المغدور. ولكن ما أن استوى الطعام، حتى فوجئوا بـرصوان، يأخذ القدر الذي احتوى اللحم، ويهرب به مختفيا بين الأشجار. طاردوه حتى اتعبتهم المطاردة، وعندما وصلوا إليـه، كان قد أتى على أغلـب اللحم، وما تبقـى منه تناثر أثنـاء النزاع فوق الأرض، مختلطا بالأتربة والأوحال.

عادوا ببطون خاوية إلى غرفة الضيافة، يحتمون بها من صهد القيلولة، وهم يتميزون غيظـا، وينزلون لعنـاتهم برضوان، الذي ألقـى بجسمه فوق الأفـرشة واستغرق في النوم، غير عابئ بهم أو بشتائمهم.

ما أن رأوه نائما، يرسل شخيره عاليا، حتى جاءتهم الفكرة التي يحققون بها انتقامهـم. قرروا أن يسّدوا كـل منافذ الضـوء في الغرفـة، حتى تظلم إظـلاما شاملا، ثـم يوقظونه وهـم يوهمونه، بأن الغرفـة مشرعة النوافذ، مليئـة بأشعة شمس الظهيرة، لكـي يلتبس عليـه الأمر ويظـن أنه فـاقد البصر. يفـزعونـه قليلا، ثـم يفتحون له النـوافذ، ليعرف عندئذ أن الأمـر لم يكن سوى دعـابة، يردون بها على دعابته الثقيلة التي حرمتهم من طعام الغداء.

أقفلوا بـاب الغرفة ونـوافذها الثلاث. وجـاءوا بالبطاطين الثقيلـة، القاتمة

اللون، يسدلونها فوق الباب والنوافذ، ويسدون بها كل الشقوق التي يأتي منها الضوء، حتى أظلمت الغرفة إظلاما كـاملا . جلسوا وسط الظلام، يتظاهرون بأنهم يلعبون الورق، ويـوهمونه بأنهم يعدون الشاي . وامتدت يـد أحدهـم تهز بدن رضوان وتوقظه لكي يتناول كوب الشـاي .

سمعوا حركة رضوان وهو يقوم من رقاده، يتمطى ويتثاءب .

ـ هيا أما زلت نائما .

ـ كيف يواتيني النوم، وأنتم تزعجونني بكل هذا الصخب .

اكتشف الظلام الذي حوله، فتساءل قائلا :

ـ أين أنتم ؟

ـ هيـا خد هذا الكوب مـن الشاي الأخضر، لعله ينزل سما يهري معـدتك بكل ما استولت عليه من لحوم .

مضوا يتظـاهرون بأنهم يلعبـون الورق، وعلا صراخ أحـدهـم ابتهاجـا لأنه حقق انتصارا في اللعب . في حين أصر زميله الآخـر علي أن يده لاتزال ممدودة بكوب الشـاي، ويلح على رضوان أن يأخذ الكوب قبل أن يبرد .

ـ أين هو كوب الشاي . إنني لا أرى شيئا .

ـ ماهذا الذي تقوله يارجل . هل عميت ؟

ـ أقول أنني لا أرى إلا الظلام . فهل نحن في منتصف الليل .

ـ توقف عن مزاحك الثقيل . فقد نلنا مايكفينا هذا اليوم . إننا في منتصف النهار. نشرب الشاي ونلعب الورق . فأين هو الظلام ؟

قال صائحا :

ـ إنني لا أمزح . إنني لا أرى شيئا أقول لكم .

أدركوا أنهم أتقنـوا اللعبة . وأن الحيلـة قد انطلت عليـه . فليذق قليـلا مما يسقيه للآخرين . قال أحد رفاقه في تشف :

ـ لاحـول ولا قوة إلا باللـه . إذن فقد عميـت يارضوان . إنها لعنـة الجمل الذي أكلت لحمه بمفردك .

أطلق رضوان صيحة ذعر، ومضى بعدها يضرب الحائط باكيا متشنجا .

ـ مستحيل . غير معقول . غير ممكن . هل حقا صرت أعمى . مستحيل . كيف ؟ لماذا ؟ مستحيل .

اطمـأنوا إلى أنهم حققـوا انتقامهـم ، وزرعوا في قلبـه رعبا لـن ينساه مـدى العمر. فـأطلقوا ضحكاتهم السـاخرة التي فضحـت اللعبة . قال رضـوان من خلال التشنج والبكاء .

ـ انكم تضحكون .

ـ كل هذا لكي تتعلم ألا تمزح معنا مـزاحا ثقيلا مرة أخرى . اطمئن . انك لم تفقد البصر. نحن الذين أغلقنا الغرفة قصدا لكي نفزعك .

مضى يضرب الهواء لكي ينالهم بلكماته ، في حين ظلوا يطلقون الضحكات وهم ينزلون البطـاطين من فوق النوافذ ، ويفتحونها ليتدفـق ضوء النهار ويملأ الغرفة . فروا مـن أمامه ضاحكين ، لكي يتقوا ضرباته عنـدما يبصرهـم ، ولكن رضوان ظل يتخبط في مكانه يتلمس الحائط صائحا .

ـ هيا افتحوا النوافذ بسرعة أيها الكلاب .

تجمدوا في أمـاكنهم ، غير قـادرين علي استيعـاب ماحـدث . فقد فتحـوا الباب كما فتحوا النوافذ فكيف عجز رضوان عـن الرؤية وسط هذا النور الذي ملأ الغرفة .

واصل رضوان الصياح .

ـ سأنتقـم منكم واحدا واحدا أيها الجبنـاء . سأمنعكم من ركـوب السيارة لكي تعودوا إلي بيوتكم سيرا على الأقدام . ستصلـوها بعد أسبوع إن شاء الله . هيـا ، لماذا تبطئون في فتـح النوافـذ . دعـوني أرى الضوء ، أيها الخنـازير. لقـد اتعبني الظلام . سأفتح النافذة بنفسي فأين هي؟

وقفوا في رعب وصمت ينظرون إلى رضـوان وهو يضرب الجدران ، ثم هرولوا إليه ، يقودونـه ، وهو يتهددهم ويتوعـدهم ، إلي خارج الغرفة ، بـأمل أن يعيد إليـه ، الوقـوف فـوق الأرض العـراء ، وتحت شمس الظهيرة السـاطعـة ، بصره المفقـود . ولكن رضـوان ظـل ينشر ذراعيه في الفضـاء . ويبحـث عـن نافـذة لاوجود لها ، وهو يلعنهم ويصيح بهم أن يعينوه على فتح النافذة المغلقة

عندها أدركوا أن الظلام الوهمي ، الذي أحكموه حول صاحبهم ، قد تحول إلي ظلام حقيقي ، لاتنفذ إليه أشعة الشمس . أدركوا في حزن وأسى عظيمين ، أن رضوان ، سيعيش منذ اليوم فاقد البصر.

صفحة فارغة

المحتويات

رقم الايداع ٩٦/١٤٢٤٨
I.S.B.N. 977 - 09 - 0365 - 5

مطابع الشروق

القاهرة ٨٠ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت . ص ب. ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)